الفصل الخامس
استطلاعات رأي في السوسيولوجيا

1) القيم الاجتماعية في عالم اليوم: أية مفاهيم؟
2) الجنوسة في فهم الشباب اللبناني
3) الفتيات والتحرش الجنسي
4) الأنا والآخر الطائفي: أية علاقة؟
5) السلوك الجماعي وظاهرة التظاهر

obeikandl.com

obeikandl.com

استطلاع رأي (1)
القيم الاجتماعية في عالم اليوم: أية مفاهيم؟
(مقاربة ميدانية في الوسط اللبناني)[1]

أين نحن من عالم القيم؟ هل انتفت المروءة من أعرافنا؟ كم بقي من نصرة الملهوف وإعانة الناس وشيوع الأمانة والصدق والاحترام وحب الخير؟ لماذا أصبح الوفاء وحفظ الجميل والإخلاص أشبه بالعملات النادرة؟ أين أصبحت المعايير القويمة، ماذا حل بها وما حل محلها..؟ جملة تساؤلات وأحداث دفعتني لأبادر مع مجموعة من طلابي إلى البحث ميدانيًا عن دلالات ومؤشرات ظاهرة القيم: **إلى أي مدى لا زالت راسخة في وسطنا الاجتماعي المحلي وإلامَ يعود أمر تبدلها وانهيارها؟**.

مدخل نظري:

من العناصر الجوهرية في جميع الثقافات منظومة الأفكار التي تحدد ما هو مرغوب وما هو غير مرغوب في المجتمع، ذلك أن في أي حضارة بشرية ثمة مؤشرات إرشادية توجه أفعال البشر مع الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، هذه المنظومة/ المؤشرات هي القيم بحد ذاتها، وتستدل ـ في تعريفاتها ـ من ذلك المخزون الفكري والتربوي الذي يعمل على الدوام في تشكيل الأسلوب الذي يجب أن يتصرف به أفراد جماعة ما إزاء ما يحيط بهم كونها تضفي معنى محددًا معينًا للأشياء من حولنا كي يتم على ضوئها التصرف

(1) استطلاع للرأي أجراه المؤلف مع مجموعة من طلابه خلال العام 2005 كتدريب عن البحث الاجتماعي (غير منشور).

والتقييم والتقدير. وقد عرفت القيم منذ عهد بعيد عندما كان القدامى يعبرون عنها بأسماء مختلفة مثل الخير الأسمى، الكمال، المثل العليا، الفضيلة والنبل وبهذا يعتبر الصدق والمروءة والأمانة والولاء وتحمل المسؤولية كلها قيم خيرّة، يناقضها الكذب والغدر والمكر والجبن كقيم قبيحة. إنما لهذه القيم معنيين أحدهما: موضوعي ووفق هذه المعنى تكون القيمة كل ما من شأنه أن يجعل شيئًا من الأشياء أو موجودًا من الموجودات جديرًا بالاحترام والرغبة في اكتسابه. أما المعنى الآخر فذاتي وهو ما يرغب فيه شخص معين أو يجله ويقدر أهميته بنظره، وهذا ما يجعل القيم تختلف من شخص لآخر وفقًا للحاجات والأذواق.

وتميز العلوم الاجتماعية في تناولها للقيم عادة بين القيم ـ الوسيلة التي تكون بمثابة معتقدات تفاضل بين سلوك وآخر، كقولنا مثلًا إن الصدق أفضل من الكذب، الكرم أفضل من البخل إلخ.. والقيم ـ الغاية وهي التي تكون بمثابة غايات مثلى نسعى إليها كي نحقق معنى وجودنا من خلالها كالحرية، العدالة، السلم، السعادة، الثروة، المساواة، الصداقة. وفق هذا التعريف تعبر القيم بكافة مفاهيمها عن أبعاد المجتمع التي تنشأ فيه، فهي الفضاء الاجتماعي والثقافي التي يستظله أي فرد/ جماعة/ نظام يود أن يكون لديه طابع خاص من المعايير والأعراف. ولهذا السبب نجد التمايز في إعلاء بعض القيم على حساب أخرى بين مجتمع وآخر انطلاقًا من الاحتياجات المشتركة، قواعد السلوك المتفق عليها ونمط الحياة المعاش والمخصوص؛ فقد تميل جماعات معينة مثلًا إلى التشديد على قيمة المعتقدات الدينية بينما تميل جماعات أخرى إلى إعطاء قيمة أعلى للعلوم والتقدم الحضاري، وتبين بالمثل أيضًا أن المجتمعات التي تولي «الملكية الخاصة» قيمة وشأنًا تأتي قوانينها صارمة لجهة أي تعد على حقوق تلك الملكية سواء بالسرقة أو العبث، وكذلك الثقافات التي تعلي من شأن الكرم وحسن الضيافة، فإن معاييرها الثقافية تؤكد التوقعات بتقديم الهدايا وتشدد على أنماط السلوك المتعلق بواجب الضيافة وتقدير الضيوف.

وهكذا تغدو القيم نوعًا من الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو

عدم التفضيل للموضوعات والأشياء والأشخاص على ضوء تقييمه وتقديره ورغباته، وتتم عملية التقييم هذه بناء على ما لدى الفرد من معارف وخبرات وتفاعل مع المحيط الذي ينشأ فيه وبذلك تصبح مقياسًا أساسيًا يحكم تصرفاتنا ويوجه سلوكنا، أنها وبحسب تعبير أحد علماء الاجتماع بمثابة «ممكنات اجتماعية متاحة أمام الشخص الاجتماعي في الموقف الاجتماعي..».

دراسة القيم:

استحوذت دراسة القيم اهتمامًا ملحوظًا منذ فترات طويلة مع بداية حديث الفلاسفة عن السلوك البشري والاجتماعي بدءًا من أفلاطون وأرسطو وكتاباتهما حول ما يمكن أن يسير عليها جماعة تضم أفرادًا غير متكاملين من شرائع حكم وسبل تنظيم معاش لتحصيل الحد الممكن من الفضيلة والسعادة. إلى الفلاسفة الغربيين المحدثين أمثال توماس هوبز (1588-1679) وآدم سميث (1723-1790) حيث أشار الأول إلى أن أعظم خير يمكن أن يصل إليه إنسان في هذه الدنيا هو «السلام»، حياة يسودها الأمن والاستقرار وبذاك لا يبدو السلام كعملية أخلاقية واجبة بين الناس فحسب وإنما قيمة غائية يمكن عن طريقها الوصول إلى هدف سام ألا وهو السعادة. أما سميث فقد لمح في كتابه «نظرية العواطف الأخلاقية» إلى أهمية التعاطف مع الغير أي ما يطلق عليه اليوم بالتفاعل الاجتماعي، فالتعاطف بحسب رأيه هو انفعالنا بعواطف غيرنا وإحساسنا بالآخر، إذ عندما ننفعل لما يحدث للآخرين (كأن نسعد أو نبكي) هو بحد ذاته قيمة. بدورهم الفلاسفة العرب أولوا اهتمامهم بمفهوم القيم عندما تحدثوا عن أهمية الاجتماع البشري ودور التنشئة الاجتماعية فابن سينا يرى أنه «يجب على والد الصبي أن يبعده عن مقابح الأفعال ومعايب العادات» وكذلك فعل ابن مسكويه الذي بيّن في مؤلفه «مكارم الأخلاق» جملة القيم التي تهدي إلى شخصية اجتماعية نامية، وفي السياق ذاته قال أبو حامد الغزالي الذي لمح في كتاباته عن النمو والاجتماع الإنساني بالحديث عن السواء واللاسواء ومعيار القبح والحسن والأفعال المحمودة والأفعال القبيحة.

هذا يعني أن موضوع القيم ظل مرافقًا لكل حقبة وعصر، انتشرت سماتها الروحية في جميع المجتمعات المعروفة، فهي ورغم تعدد العقائد والممارسات الدينية وتنوع الأمصار بين ثقافة وأخرى تنطوي على منظومة من الرموز التي تستوجب الاحترام والإجلال كونها ترتبط بسلسلة من الشعائر والتعاليم والأعراف التي يشترك فيها جميع المؤمنين بها.

و يتقدم موضوع القيم إلى صدارة الاهتمام عندما يتهدد مفهومها منعطفات التغير السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي، ويدخل الناس في مخاض ولادة قيم لم تكن مألوفة لمجالهم المحلي، ويبدأ الصراع بين هذا «الغريب» الوافد أو المستحدث وبين ذاك المأنوس لديهم.. وبعد برهة من الزمن تتحسر فئة من الناس على قيم «قيّمة» اندثرت إزاء قيم بات شيوعها بالنسبة لهم بمثابة وباءً اجتماعيًا حتى بات المجتمع ـ بها ومن خلالها ـ مأزومًا؟ لهذا كانت تساؤلاتنا عن واقع القيم في عالم اليوم **في ظل أية قيم اجتماعية / أخلاقية / إنسانية نعيش؟ ما هو المتداول بين الناس؟ هل هناك ثمة قيم طاغية على أخرى؟ هل انحسر وجود قيم الخير إزاء قيم الشر؟ما الذي انحسر منها وما الذي انتشر إزائه؟ هل نعيش فعلًا أزمة قيم في مجتمعنا الشرقي المحافظ؟** مختلف هذه الطروحات تم مقاربتها ميدانيًا في أوساط متفرقة من المجتمع اللبناني بتنوعه المناطقي والطائفي والاجتماعي والعلمي والمهني، وقبل أن نأخذ في تحليل المعطيات، نشير إلى تقنيات القياس التي استخدمت **لغاية البحث.**

كيف يتم قياس القيم؟

ثمة أساليب عديدة متعارف عليها في الدراسات المختصة بدراسة القيم حيث هناك: **الملاحظة الميدانية** التي ترتكز على المشاهدة العيانية لشملة من السلوك الاجتماعي في مواقع عدة، أو في موقع واحد خلال فترة زمنية محددة، كأن يهدف باحث ما بدراسة قيم معينة في مرحلة عمرية أو مجتمع ما، راصدًا بذلك مدى ثباتها أو تغيرها، الأسباب الآلية إلى ذلك؟

ومن وحدات القياس أيضًا المقابلة الشخصية واستطلاعات الرأي، وهي

عبارة عن مجموعة من الأسئلة تسبر آراء جماعات معينة، يدور مضمونها في الغالب حول سلوك اجتماعي يتطلب معرفة مآثره بأن يطلب من «المستجوب» نقده لها أو تقييمه عليها أو يبدي رأيًا حولها بناء على معايشته لها، وغالبًا ما تتوجه استطلاعات الرأي إما إلى عينات مختارة من نفس التوجه والأعمار والأذواق في مجتمع محدد، وإما أن تجري على عينات عشوائية من مختلف الأوساط الاجتماعية بهدف معرفة مدى تقبلهم أو رفضهم لما هو مطروح في الاستبار، وهذا ما تعمد إليه مراكز الدراسات والأبحاث الاجتماعية وعليه كان اعتمادنا لها في دراساتنا الآنية حيث قام طلاب باحثون باستجواب أكثر من 300 مستجوبًا عبر استبيانًا يتضمن الأسئلة التالية:

1 . ما هي الصفات التي تعجبك في الناس؟.

2 . ما الصفات التي تزعجك في الناس؟.

3 . ما هي القيم التي يجب الحفاظ عليها أكثر من غيرها؟.

4 . هناك أفعال غير مقبولة اجتماعيًا لكن بعض الناس يقوم بها، أي من هذه الأفعال تعطيها تبريرًا أكثر من غيرها؟.

5 . ما هي القيم / الأمور التي يجب أن تتغير في عالمنا الاجتماعي المحلي (لبنان)؟.

6 . ما هي القيم التي تحب أن تتصف بها/ أو تود أن تربي أولادك عليها؟.

*** معطيات الاستطلاع:**

بعد تدريب فريق العمل على آلية الاستطلاع ومناقشة خطة التحرك والعوائق التي يمكن أن تحدث، انطلق الباحثون لجمع المعطيات من مجالها الجغرافي المفترض، وبعد شهرين من العمل المتواصل (آيار وحزيران 2005) تم فرزالنتائج وتحليل مضمون الإجابات التي أمكن الحصول عليها وفق البيانات التالية:

obeikandl.com

جدول رقم (1) توزع المستجوبين بحسب تقديرهم للصفة التي تعجبهم في الآخر.

القيمة	صفاتها/ مظاهرها	%
الصدق	الصراحة/ الوضوح/ الشفافية/ النزاهة	%32
التعامل الحسن	الاحترام/ التواضع/ النظام/ اللياقة	%20
تقبل الآخر	انفتاح/ صبر/ بساطة / عفوية/ محبة	%17
التقدير	الوفاء/ الإخلاص/ الأمانة.	%16
الدافعية	الإباء/ الطموح/ الدينامية	%12
الغيرية والإيثارة	التعاون/ المروءة/ حب الغير/ الإنسانية	%12

يبدو من دلالات هذا الجدول (رقم 1) تصدّر قيمة الصدق أعلى المراتب (32%) ولا غرو في ذلك باعتبارها المرتكز الأساسي لقوام شخصية اجتماعية صحيحة، فهذه القيمة اختيرت وتختار على الدوام لأهميتها النفسية والأخلاقية نحو بناء علاقات صحيحة مع الآخر، فهي فضلًا عن اعتبارها قيمة تربوية سامية نتشربها منذ الصغر عبر حلقات التنشئة، وتشدد عليها التعاليم الدينية أيّما تشديد، فهي عماد وجودنا الاجتماعي الحق وإلا بدونها يبدو كل شي زائف وزائغ. لهذا إن كان البعض شدد على أهمية وجودها انطلاقًا من اعتبارها «إرث ديني ـ تربوي ـ أخلاقي» قيّم، فإن البعض الآخر أشار إليها من باب التحسر على أنها قيمة سامية اندثرت وقلَّ وجودها بين الناس أو من باب التمني لو أنها «تتعزز» بصفاتها ومظاهرها وأبعادها بعدما كثر الخبث بين الناس حتى بات الحديث عن مثل هذه القيمة كأنه أمنيات ليتها تتحقق.

أما فيما يتعلق بالنسبة التالية «**التعامل الحسن**» فقد جاءت ثانيًا (20%) ـ من حيث تدرج الأهمية ـ لما لذلك من أهمية في التواصل الاجتماعي الذي ينبغي أن يتم على أسس من الاحترام والسلوك الاجتماعي الحسن ومبادئ الكياسة، وما إن نجد شيئًا من هذا القبيل لدى أحد من الناس فإنه ولا شك يستحوذ إعجابنا، ذلك أن الخصال الحميدة والسمات الطيبة في التعامل: كالتواضع والانتظام، هي ما تجعلنا نقدر من يمتلكها، لقول أحد الحكماء: «كن كريمًا إذا أحببت، وجميلًا إذا استطعت ولكن ينبغي أن تكون محترمًا».

أما عن القيمة التي حلت ثالثًا ـ **تقبل الآخر** ـ (17%) فهي عبارة عن آراء شخصية متنوعة أشار إليها الناس إما اقتناعًا بجدواها كونهم يعيشونها وإما لأنهم يفتقدونها فيحنون إليها في عالم اضطرب بقيم مادية وثقافية مستوردة بات يشعر معها المرء أنه غريب في مجتمعه، حتى تعقدت حياته بمعطيات عصرية / تكنولوجية/ اجتماعية جديدة أخذ يشعر معها أن شيئًا من ذاته الاجتماعية الأصيلة فقد رونقه، فلا التزاور العفوي بقي موجودًا ولا التواصل البسيط بين الناس ما زال قائمًا بل كل بنفسه، يعيش عالمًا صنعه لذاته من التلفزيون والتلفون والسيارة. ثمة حنين إلى تلك القيم القائمة على حياة البساطة والمحبة والعفوية والتواصل المنفتح مع الآخرين دون أي مسافات أو «بروتوكول».

ومن الملاحظات الملفتة على معطيات هذا السؤال ورود قيم سامية **كالتعاون والمروءة والاندفاع لمساعدة الناس في أدنى النسب**، إذ في الوقت الذي تكثر فيه دعوات كثيرة نحو التضامن والتكافل الاجتماعي نجد ضمور هذه القيم، رغم «منفعتها» ليست الاجتماعية فحسب وإنما على الصعيد الشخصي والنفسي لفاعلها، فالاندفاع نحو مساعدة الآخرين يضفي على الحياة بعدها الإنساني، ويجلب السلام والحرية والأمان والعدالة لكل الناس.. التطوع من أجل الآخرين هو رحلة نحو اكتشاف الذات وتمرس القيادة وتحقيق الهوية وتربية مقدرتنا على السياسة» كما أنه يعلمنا كيف يمكن أن نكون ذوو مسؤولية اجتماعية، كيف نقدم وكيف نتقبل؟ كيف يدرب المرء ذاته وينمي قدراته ويغني شخصيته.

وما استوقفنا أيضًا في النسب إشارة المستجوبين إلى قيم أخلاقية هامة مثل الإخلاص والأمانة والوفاء (16%) وما أشارتهم إلى ذلك إلا بعدم انتشرت بينهم القيم النقيضة على نحو ما بينته نتائج معطياتنا على السؤال التالي حول الصفات التي تزعجك عند الناس، فكانت الإجابات التالية:

جدول رقم (2): توزع آراء المستجوبين حول الصفات الأكثر إزعاجًا ورفضًا.

الصفة	%
الكذب (نفاق/ رياء)	35
غرور (تكبر/ تعجرف)	16
غدر (غش/ خيانة)	8
غيرة (حسد/ نميمة)	8
وقاحة(قلة تهذيب/ تدخل سافر)	6
حقد(كراهية/ أذى)	5
وصولية (حب المال/ انتهازية)	4
رذائل أخرى (احتيال/ جشع/ سرقة/ ثرثرة/ قلة النظافة)	16

يظهر من هذه الجدول (رقم2) ارتفاع نسبتي: الكذب وهذا بطبيعة الحال كونها آفة اجتماعية خطيرة يترتب على انتشارها مخاطر جمة لا تنتهي ليس أقلها تعطل مصالح الناس أو انسياقهم إلى مشاكل لا تحمد عقباها. ونسبة الغرور المتمثلة في التشاوف، الادعاء، التكبر، التعجرف، والتعالي على الناس، الذي سببه إما كثرة المال أو تبوء المراكز أو ارتقاؤهم سلم العلم والتخصص، ليغدو أصحابها فوق مستوى الناس الاجتماعي والمعرفي ينظرون إليهم من خلال أنوفهم، ويصعرون خدهم وكأنهم خلقوا من طينة غير طينة البشر. وهذا ما جعل من بعض المستجوبين يشمئز ممن لديه صفات الغرور ومظاهره ويقيّمه في خانة الأكثر رفضًا وإزعاجًا، وهذا ربما ما يبرر لنا ما ورد عند تحليلنا للجدول السابق شوق الناس إلى «حياة البساطة» وإشارة الناس إلى «مسألة التواضع» فما كان ذلك إلا بعدما كثر حديثو النعمة بمظاهرهم الاستعلائية المتمثل في أكثر من جانب: هيئة جلوسهم أو مشيتهم / أحاديثهم وتخاطبهم / استهلاكهم التفاخري / تبجحهم بأفعالهم / ارتباطهم بمراجع مسؤولة.

في مختلف هذه الآراء ـ الواردة في نسب الجدولين ـ نلاحظ تنوعًا من الصفات الأخلاقية والاجتماعية المرغوبة والقيم المثلى ـ إزاء الصفات المزعجة والخصال السيئة. مثل هذا «التناقض» في وجوده ليس حديث العهد

في مجتمعنا، فهو انعكاس للصراع الأبدي المتواتر منذ أقدم العصور بين الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، الحق والباطل، ولكن أين الناس اليوم من هذا الصراع، في أي جهة يقفون؟ هل تغيّر الأفعال الماكرة وسوء النوايا والظروف الصعبة من نظرة الناس للقيم الخيّرة؟ بمعنى أدق: ما هي القيمة التي يجب الحفاظ عليها إزاء التحديات التي تواجههم؟ هذا ما توقفنا عنده وسألنا عن رأيهم بالقيمة الأساس التي يجب أن تسود بين الناس بل يجب الحفاظ عليها وإلا انتهينا كمجتمع؟ ليبرز الصدق بأعلى درجاته (29%) يليه الاحترام بكل ما تعني هذه الكلمة من مدلولات (18%) **فحسن التعامل** والمحبة ومساعدة الغير وتقبل الآخر (15%) يليه **التواضع** والتأدب (12%) **فالوفاء والإخلاص** (7%) **والتسامح** (4%) وغيرها من الخصال الحميدة(6%).

مع تغير نمط الحياة السائد الذي يحدث في مجتمع ما، تظهر إلى العلن أفعالًا اجتماعية جديدة نتيجة التخالط مع الثقافات والتلاقح في الحضارات، ومثل هذه الأفعال تكون مرفوضة و مستهجنة بادئ أمرها لكن مع انحسار الضوابط الاجتماعية تتسع دائرة انتشارها رغم معارضة الكثيرين لها، إزاء هذا الواقع الماثل بتصرفات اجتماعية غير مقبولة، وفي ظل قيم محافظة وبنى معرفية تقليدية ماذا يقول الناس عن بعض التصرفات الاجتماعية غير المقبولة رغم أنها منتشرة في وسطهم،حول ذلك قدم إلى المستجوبين سؤالًا مفاده: **هناك بعض الأفعال غيرالمرغوبة اجتماعيًا، ولكن البعض يبرر فعلها، أي من هذه الصفات تعطيها تبريرًا أكثر من الأخرى؟** ثم عرضت على المستجوبين لائحة من ثمانية أفعال تحدث في أي مجتمع ولكننا أردنا معرفة وزنها القيمي في المجتمع اللبناني على وجه الخصوص، لتأتي النتائج على الشكل التالي:

جدول رقم (3) توزع المستجوبين حسب تبريرهم للأفعال الاجتماعية غير المرغوبة.

الفعل.	%	التبرير.
الإجهاض.	28	وجود خطورة على صحة الأم.
عدم مساعدة مصاب.	23	تجنبًا لتحمل المسؤولية تجاه الشرطة والقانون.
الكذب.	13	منجاة من بعض المواقف المحرجة.
الرشوة.	9	فيها تيسير لبعض الأمور.
علاقة جنسية قبل الزواج.	7	اختبار لقدرات عاطفية وجنسية.
السرقة.	5	عندما يسرقك/ يظلمك أحدهم.
الخيانة الزوجية.	5	كثرة الإغراءات المنتشرة والمعلنة.
الدعارة.	3	رد فعل على قهر ما (فقر/ بطالة/ انسحاق).
لا إجابة.	7	باعتبار أن ما ذكر لا يمكن أن يبرر.

تردد المستجوبون كثيرًا عند الاختيار أو حتى عند قراءة هذه الخيارات باعتبار أننا مأخوذون بثقافة دينية تحظر مختلف ما ورد، لكن تصور البعض الواقعي بأن مثل هذه الأمور حاصلة في مجتمعنا ارتأى من نسبتهم (28%) بأن الإجهاض قد يكون مبررًا أكثر من غيره لما له من أبعاد صحية قد تؤثرعلى صحة الأم من جهة أو مع وجود مشكلة خلقية في الجنين أو لأنه حمل غير شرعي (سفاح)، ولكننا ترانا نتساءل هل الجميع يبرر الإجهاض بالطريقة ذاتها، لأن الإجهاض الذي كان يعتبر ولما يزل جريمة يعاقب عليها القانون ويمجها الشرع والدين هل أصبح أمرًا مقبولًا ومبررًا من قبل اللبنانيين؟.

أما عن النسبة التالية فكانت لعدم مساعدة مصاب (23%) ذلك أن مساعدة من هو بحاجة واجب ديني وأخلاقي وإنساني، خاصة إذا كان مصابًا وقليل من المساعدة قد تنقذ حياته، لكن الذي يجعل الناس تتردد في المساعدة هو تلك التبعات المترتبة على فعل المساعدة، فإذا أراد أحدهم ما ـ مثلًا ـ أن ينقل مصابًا بحادث سيارة إلى مستشفى لا يتم استقبالهما إلا بعد إجراءات مسؤولية تضع الناقل في موضع شبهة ويتم الاتصال بالشرطة للإبلاغ عن الحالة ويتوقّف الشخص لحين النظر في حالة المصاب. وهذا ما يجعل «فاعل الخير» يتروى عند عمل شبيه في المرة التالية، من هنا إذا كان أحد لم يساعد مصابًا

فإن التبرير متضمن في تبعات المسؤولية التي يرغب أن يكون بعيدًا عنها. على حين أشارت فئة لا بأس بها بضرورة المساعدة على رغم من كل التبعات القانونية أو الجزائية اللاحقة.

ومن النسب اللافتة «تبرير العلاقات الجنسية غير المشروعة سواء قبل الزاوج أو في إطار آخر» وترانا نتساءل هل تبرير البعض لها من قبيل أنهم يعيشون كبتًا جنسيًا وظروفًا صعبة ولا بد من إقامة علاقات عابرة ضمن حدود الممكن والواعي (عقود ارتباط عرفية.) أم لأن مجتمعنا أصبح مفتوحًا على كثير من المغريات الإباحية وأصبحت النظرة إلى الجنس متاحة عبر أكثر من وسيلة (مرئية) مما أشبع فضول الناس وجعل تقييمهم يتسم بشيء من «الإقرار بواقع الحال» وكأن الأمر شيء «عادي» ومقبول[1]؟ رغم أن المسألة الجنسية أضحت في الغرب جزءًا من الحريات الشخصية وأمرًا مقبولًا، لا زال المجتمع اللبناني ينظر إليها بنوع من الحذر والرفض فيما لو تمت خارج أطرها الشرعية (الزواج تحديدًا) فضلًا عن العامل الديني الذي يؤطر أي علاقة من هذا القبيل في إطار الحرام وهذا ما أثر في اتجاهات المستجوبين الذين لم يعطوها تبريرات عالية.

إذن تتسع الهوة بين حياة وقيم المجتمع الغربي عن المجتمع الشرقي ورغم أن المجتمع اللبناني يأخذ بكلتا الثقافتين إلا أنه في مسائل محددة تمس القيم فإنه يضعها في خانة المحرمات وهذا ما جعلها في آخر القائمة لناحية اختيارها من قائمة الأعمال التي لا يمكن أن تبرر.

(1) وفي هذا السياق أظهر استطلاع للرأي أجرته المؤسسة الدولية للمعلومات حول الشباب والمجتمع اللبناني وتقاليده (1997) بعض المعطيات المتعلقة بمسألة العلاقة الجنسية قبل الزواج حيث قبل من نسبتهم 35% من الشباب على مبدأ الجنس قبل الزواج في حين رفضته من نسبتهم 64%، وعن مدى استعدادهم للزواج من فتاة سبقوا وأقاموا معها علاقة جنسية ذكر 55% بأنهم يقومون بمثل هذا الزواج مقابل 44% أعربوا عن رفضهم للفكرة، وعن ردة فعل الأهل في حال عرفوا أن ابنتهم العزباء حامل (من علاقة ما) تراوحت ردود الفعل بين الغضب الشديد عند من نسبتهم (47%) وتفهم الوضع عند نسبة(28%) في حين أعرب من نسبتهم (24%) عن تصميمهم على معاقبتها بقساوة.

وتفاوت الناس في تقييمهم للذي يرغبونه أو يرفضونه من أفعال/ صفات/ تصرفات، دفعنا إلى مقاربة وجهة نظرهم نحو «الحال» الذي يجب أن يتغير في وسطهم الاجتماعي، بسؤالنا إياهم: ما هي الأمور التي يجب أن تتغير في البلد (لبنان) برأيك؟ لتتنوع آراء الناس وتعدد بين مسائل سياسية وأخرى اقتصادية وتالية اجتماعية وفق الترتيب البياني التالي:

رسم بياني رقم (1) يبين توزع اللبنانيين حول الأمور الأكثر طلبًا للتغيير:

رسم بياني رقم (١) يبين توزع اللبنانيين حول الامور طلبا للتغيير:

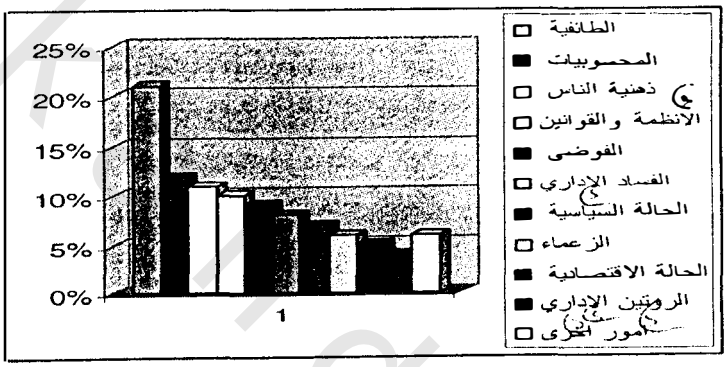

يرى غالبية اللبنانيين (21%) ضرورة التخلص من حالة الطائفية والولاءات المذهبية، باعتبارها مرض يفتك بالجسم اللبناني فمن جرائها عرف اللبنانيون ويلات الحرب والقهر والتقاتل، وهم شعب مسالم في بلد صغير ارتضوا العيش فيه معًا منذ وجودهم فيه، على أن يظهروا ولاءهم الكامل لأرض وكيان ووطن، لكن الظروف السياسية العاصفة التي مر بها لبنان جعلت الكل يتقوقع ضمن طائفته متوجسًا الآخر ويرسم مسافات البعد عنه، ولأن الأوطان لا تبني بالتقاسم والتمذهب والتعصب كلٌّ لملته، وللخروج من حالات التصارع والانزواء رأى البعض أهمية التخلص من علة العلل ألا وهي الطائفية.

ومن أكثر الأمور التي يرفضها اللبنانيون: المحسوبيات والاستزلام لزعيم أو جهة ما والتوظيف بالواسطة، فمثل هذه المسائل لا تقل خطورة عن مرض الطائفية أو لعله أحد إفرازاتها حيث تمنع المراكز والوظائف عن أصحاب الكفاءات وتترك لأقطاب الطوائف كحصص من تركة الدولة ليتصرفوا بها كيفما يرغبون عبر توظيف أزلامهم بها. لينسحب على ذلك خدمات خاصة لجماعة هذا الزعيم دون الآخرين.

ومن الأمور اللافتة والمفترضة تغيير ذهنية الناس تجاه دولتهم (11%) الذين لا يكنون أدنى احترام أو تقدير لها ولمؤسساتها. ولعل هذه النظرة المجحفة في حق الدولة وتوصيف الناس فيها أقوالًا مذمومة مرده إلى الفوضى وتجاوز القانون (9%) ولامبالاة المسؤولين الذين يفترض بهم أن يعملوا على خدمة الناس أيًا كانوا، لا خدمة أبناء ملتهم أو أنصار زعمائهم فحسب، أو ربما يعود ـ تناول الناس للدولة ـ إلى وجود أنظمة وقوانين قديمة لا تجاري الواقع الحالي سيما لجهة الإجراءات الإدارية المتطلبة والمتعبة في آن. لكن الأمر الأشد تمنيًا في التغير هو الفساد الإداري المتمثل في دفع الرشاوى، ناهيك عن الإجراء الإداري المضني لإنجاز معاملة معينة (خاصة عندما يجهلون دهاليز المؤسسات العامة فيقعون فريسة «سماسرة تخليص المعاملات» مقابل بدل مادي تقرر قيمته بحسب أهمية «المعاملة») وفي كل الأحوال تعطل أمور الناس وتكلفهم عناء الوقت والجهد والتنقل والمال مما يغيض أصحاب الدخل المحدود أو ممن ليس لديهم جهات نافذة، فيكيلون الشتائم والسباب على الحال الذي أوصلهم إلى أن يكونوا تحت رحمة «موظف حكومي». من هنا لا نستغرب إشارة نسبة معينة إلى ضرورة تغيير «الرئيس الحالي والزعماء» (6%) باعتبارهم المسؤولون عن هذا العبث القائم بعدم محاسبة هؤلاء على تجاوزاتهم.

وانطلاقًا من هذه «الحالة المزرية» التي يتمنى أكثر الناس تغيرها، وبعد أن حدد المستجوبون لأبرز القيم السائدة في محيطهم، رأى فريق البحث من الأهمية بمكان أن يستمزج آراءهم بشكل استنتاجي عن القيم التي تبدو أكثر أهمية في بناء نسق قيمي اجتماعي سليم آنيًا ومستقبليًا، فتوجهنا بالسؤال

التالي: ما هي القيم التي تحب أن تتصف بها/ أو تود أن تربي أولادك عليها؟ فظهرت النتائج التالية:

جدول رقم (4) يبين توزع المستجوبين بحسب رأيهم للقيم المطلوبة.

القيمة	%
احترام الآخر	23
الصدق والصراحة	21
حب الوطن واللاطائفية	9
الأمانة	8
التهذيب والعفة	7
محبة الناس	7
الثقة بالنفس والمسؤولية	6
النظام	5
الالتزام بالدين	4
قيم أخرى(العطاء/ العلم/ التسامح/ المثابرة/ الوفاء...)	9

ويمكن ترجمة هذه المعطيات بمؤشرات عدة.

* توزع آراء الناس في بنود قيمية عدة منها:

1 ـ قيم خاصة تتعلق ببناء الذات، وبدت في تحديدهم للثقة بالنفس/ المسؤولية/ التهذيب.

2 ـ قيم معينة تتوجه إلى الوطن وتجلت في: نبذ الطائفية/ احترام النظام.

3 ـ قيم تدور حول قواعد التعامل مع الآخر من خلال: محبة الناس / احترام الآخر/ الأمانة / الصدق / قول الحق والصراحة.

4 ـ قيم دينية وأشير إليها بأكثر من وجه عبر تحديدات مثل: مخافة اللّه/ حب الدين / الالتزام بمبادئ روحية سامية كالتسامح/ العطاء/ العفاف/ ..

* تحديدهم قيم دون غيرها، مما يعني ضرورة الأخذ بمظاهرها في المواقف التي تستدعيها.

* اتفاق الناس على شبكة معينة من القيم يجب أن تسود، فالإنسان لا يعيش في فراغ اجتماعي والآخرين لا يمكن أن يستمروا في نظام اجتماعي دون قواعد سلوك معينة، لابد من «معايير» تحدد علاقتهم ببعضهم بعضًا، وليس هناك أفضل من وجود سلم قيم راسخ وممارس.

* تنوع في اختيارهم لنظام القيم المفترض وذلك يعود لاختلاف الناس في فروقهم الفردية وأعمارهم وجنسهم وثقافتهم ومناطقهم.

إذن يمكن اعتبار القيم على أنها محددات سلوك اتفق عليها من قبل الجماعة، أو معايير يطلقها الفرد بصفة أحكام على الآخرين بناء على أفعال يقوم بها بعضهم. ولا يتم هذا الحكم أو التقييم إلا من خلال تفاعل حاصل بين الفرد بمعارفه وخبراته وبين الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه. فقد تبين مثلًا أن هناك فرقًا بين تقييم المتدينين أو فيما يتبنونه من قيم عن غيرهم من غير المتدينين، فالأشخاص المتدينون يعطون أهمية أكبر للقيم الأخلاقية: كالأمانة والتسامح، في حين أن الأشخاص الأقل تدينًا تحتل لديهم القيم الخاصة بالكفاءة والقدرة والاستقلالية. كذلك الحال يمكن القول عن الذين ينتمون إلى طبقات مهنية واجتماعية راقية كيف يميلون إلى تقدير الأمور من خلال التعبير عن الذات والإنجاز والنجاح والأهداف الطموحة، في حين يميل ذوي الطبقات الاجتماعية الدنيا والعمال إلى أن يعطوا أهمية لقيم التدين والصداقة والطاعة والتهذيب.

هكذا نفهم القيم على أنها بمثابة مستوى أو معيار يقيس به الشخص واقعًا ما ويقيّم من خلالها الأشياء من حيث فاعليتها ودورها في تحقيق مصالحه، ويتم هذا التقييم غالبًا بناء على درجة وعي الشخص الاجتماعي وإدراكه للأمور وما يتأثر به من أوضاع اقتصادية أو سياسية أو دينية أو جغرافية ويعتبر بعض الباحثين أنه يمكن تصور القيم على أنها إحدى المعاني التالية:

- أشياء مطلقة لها هوية مستقلة.
- متضمنة في الموضوعات والأشياء المادية أو غير المادية.
- تعبر عن أفكار الشخص/ الجماعة والآراء التي يتبنوها.

- تشير إلى حاجات الفرد النفسية والاجتماعية وحتى البيولوجية.

من هنا تبدو القيم الخيرة في كل وجودها ومظاهرها وصفاتها على أنها ذلك التناغم الاجتماعي الذي يجب أن نعيشه جميعًا في حال من التواصل والتفاعل والانتماء والتشارك، وعندما تتخاذل الناس أو تتوانى عن ممارسة «القيم» الطيبة وتتصرف بردود فعل مؤذية ستعم الفوضى وتسود المساوئ، بينما إذا كانوا يفكرون بالمثل والقيم التي تؤيد الخير والحق والجمال يرتقي المجتمع فوق الفوضى والتصرفات غير اللائقة، الناس يجعلون المجتمع على ما هو عليه، كل مجتمع يعج بما يلائمه[1].

لماذا تتغير وكيف؟ يمكن إرجاع تغير القيم إلى جملة أسباب منها:

1 - **التغير الاجتماعي**: عبر ما يعرف بصدمة الحداثة، أي ذلك الصراع القائم منذ القدم بين ثنائية التقليد والحداثة، التي نجدها في كل مكان مع أناس يرغبون أن يبقوا على تقليديتهم ويستمروا بالقيم التي تشرّبوها عن آبائهم وأجدادهم وبين أناس ينزعون نحو التمثل بقيم أخرى جديدة/ دخيلة باعتبار أن القديمة عفى عليها الزمن أو أنها لم تعد تصلح لمجاراته. في مطلع عام 2000 نشرت إحدى اللجان الحكومية المفوضة في اليابان تقريرًا أوضحت فيه المعالم الرئيسة للأهداف التي ينبغي على اليابان أن تسعى إلى تحقيقها في القرن الحادي والعشرين، وكان رئيس وزراء اليابان طلب تشكيل هذه اللجنة في أعقاب ما شهدته اليابان من ركود اقتصادي وارتفاع في معدلات البطالة، وبغرض تحديد المسار الذي ينبغي على البلاد سلوكه في العقود القادمة، كانت النتائج التي خلصت إليها مدعاة لاستغراب الكثيرين، إذ أن التوصيات دعت

(1) ويقارب الباحث (روبرت سبالديني) مفهومه للقيم بمبدأ البرهان الاجتماعي عندما يبين من خلال استعراضه لشتى التجارب كيف أن كثير من مشاكلنا تحدث نتيجة حالة «الجهل الجمعي» الذي نمر به أو نعيشه، فحينما يحاط المرء بملايين الناس متعرضًا لضغوطهم فالسبيل الوحيد لتجنب الضغط هو تجاهلهم كلما أمكن، هذا فضلًا عن أن عدم اهتمام المرء بجاره أو بمتاعبه أو بأخيه الإنسان فعل منعكس شرطي في حياة الجماعات غير المتماسكة ولعل عدم الاهتمام للتورط هو ما يجعلنا لأن نكون جماعة من أناس أنانيين وبلا حساسية، إن صعوبات الحياة العصرية جعلتنا قساة، إننا ننحو نحو مجتمع بارد.

المواطنين اليابانيين، إلى أن يتساهلوا في بعض القيم الجوهرية التي يأخذون بها إذا ما أريد للبلاد أن تواجه بنجاح ما تمر به من مشكلات، وأوضحت اللجنة أن الثقافة اليابانية تعلي من شأن الانصياع والمساواة ودعت إلى اتخاذ إجراءات للتخفيف من التجانس والتماثل التام، فارتداء جميع أطفال المدارس في اليابان مثلًا زيًا كحليًا موحدًا يلغي نواحي التميز فيهم بوصفهم أفرادًا. واختتمت اللجنة دراستها بالقول إن هذه القيم (المساواة/ الانصياع/ التجانس..) تحول بين اليابانيين وبين اعتناق الأفكار الداعية إلى تمكين الفردنة والتميز والانطلاق.

2 ـ **التحضر**: والذي يعتبر أحد ثمرات البيئة الإنتاجية وأنماط العمل، مما يعني أن هناك حراكًا مكانيًا ومهنيًا أخذ مكانه في الأوساط الاجتماعية، فبعدما كان جميع أفراد العائلة ـ مثلًا ـ يعملون معًا في عمل زراعي أو حرفي واحد بكثير من روح التماسك والتساند، حدث انتقالا على صعيد هذا النمط (العائلي) مع انتشار نمط العمل الوظيفي الذي نتج عنه نزوح الشباب نحو المدينة واستقلالهم عن العائلة ونمط حياتها ومعاشها، وتحرروا نسبيًا من سلطة الكبار وأخذوا يتماهون بحياة مدينية قوامها: الإنجاز / التطلع/ المصلحة/ الربح السريع/ الترفيه وما إلى ذلك من مغريات المدينة وقيمها. فالمدنية وحياة التحضر تؤدي غالبًا إلى ضعف العلاقات الاجتماعية بين الناس[1].

3 ـ **التعليم**، لو استعرضنا واقع التعليم تاريخيًا في العالم العربي للاحظنا التحول الهائل عن بداياته في الكتاتيب الصغيرة في الأرياف، إلى مبانٍ فيها مراحل تعليم متوسط، إلى فروع جامعية متقدمة ومتنوعة بكافة

(1) حتى ولو كانوا متجاورين لبعضهم، خاصة في الأحياء المدنية الراقية حيث تمر سنين دون أن يتعرف الإنسان على جيرانه في نفس المبنى، وأحيانًا قد يتعرف الإنسان على أحد الأشخاص في مركز العمل أو في أحد الأماكن العامة فيتبين له فيما بعد أنه يسكن نفس الحي الذي يسكنه، أو ربما نفس المبنى الذي يقطنه، فمثل هذا الاغتراب في الحياة المدنية يعزز الفردية على نطاق واسع كما في ظهور آفات اجتماعية بعيدة عن القيم السليمة كتشرد الأحداث، التسول، والدعارة، وذلك لندرة الضبط الاجتماعي غير الرسمي.

الاختصاصات، ثمة تبدل ذهني صاحب الانتقال الفعلي لمؤسسات التعليم. حيث أخذنا نلمس معطياته في حراك اجتماعي هائل عند الخريجين ونمط التفكير لديهم. ومن المعروف أن للتعليم ارتباطًا وثيقًا بالقيم والسلوكيات الاجتماعية إذ مع التوسع في فرص التعليم العالي، وانتشار الجامعات وسهولة السفر لغاية التخصص، أملى هذا الواقع نوعًا من الانفتاح المعرفي الجديد حتى أصبح التعليم ليس إحدى القنوات الرئيسة للحراك المهني والاجتماعي فحسب وإنما الذهني والقيمي لما للتعليم من ارتباط وثيق بالسلوك الاجتماعي يتجلى أحيانًا عبر إقدام «النخبة المتعلمة» على التحرر من رواسب الماضي (أعراف / عادات تقاليد).

4 ـ **الهجرة**: كثيرًا ما تساهم الهجرة وخاصة بين البلاد المختلفة ثقافيًا إلى انتساخ العادات والتقاليد التي كان يعيشها أي مهاجر، وذلك نتيجة ظروف فرضها الواقع الجديد فكثيرًا من التقاليد المألوفة لديه لم تعد تستخدم، فيضطر عندها إلى الأخذ بثقافة الجماعة الذي حل فيها، ومع الوقت ينتج عن اختلاطه تغير بشري (أجيال جديدة من جراء التزاوج) وتغير لغوي (من جراء تعلمه اللغة الجديدة) وتغير قيمي (يتنازل عن بعض ما ألفه ويأخذ بما هو سائد)، وقد تبين بالملاحظة ما لهذه الظاهرة الديموغرافية من اختراق وتأثير على منظومة القيم سواء على المهاجر نفسه الذي ما إن يقصد بلدًا غريبًا عن موطنه حتى يأخذ رويدًا رويدًا يتمثل قيم هذا المجتمع خاصة إذا طالت إقامته فيه، أو سواء كان ذلك عبر «الأموال الاغترابية» التي ترسل من المغتربين لذويهم الذين يتجحون بدورهم ويترفون، وعندها تدخل العائلة عالم الترف والكمال ينعكس ذلك بدوره على نمط حياتهم ليس المادي فحسب وإنما عالمها السلوكي والقيمي لقول (ألفن توفلر): «عندما يتغير شيء ما من حولك فإن ثمة أشياء أخرى تتغير في داخلك».

5 ـ **الإعلام**: مع تقدم ثورة المعلومات وتكنولوجيا الإعلام هناك جديد كل يوم، وبما أن الناس يركنون عادة إلى ما تعلّموه واعتادوه، لايقبلون بسرعة تغير الأنماط المعرفية المألوفة، لكن مع الأجيال الجديدة سوف نجد أطفالنا ـ ولا شك ـ متآلفين مع فكرة العمل بأدوات معلوماتية مغايرة لما نعرفه نحن،

فالتكنولوجيا لن تنتظر حتى يصبح الناس مهيئين لها، خلال السنوات العشر القادمة سنبدأ برؤية تغييرات جوهرية في الكيفية التي نعمل بها، وفي نوعية الوسيلة الإعلامية التي نستخدم (من الصوتي إلى الرقمي/ من الأحادي الاتجاه إلى الثنائي/ من الثابت إلى النقال/ من شيفرة اللغة الواحدة إلى الشيفرة المتعددة اللغة) ومع استخدامنا لهذه التقنية سيتوفر المزيد من المرونة والكفاءة وتظهر قواعد جديدة لآداب الاجتماع والتشريع والمعرفة، ستؤسس وسائل الاتصال المرتقبة ـ بدلًا من الثقافة الشعبية المحلية ـ ثقافة إشهارية إعلامية تصنع الذوق الاستهلاكي والرأي السياسي المعولم، وتهندس أذواقنا وفق أنماط سلوك موحدة وقيم مستجدة.

6 ـ **عوامل نفسية** حينما يجد بعض الناس أنفسهم في مواقف صعبة أو ضحية انهزام أو غبن ما، يضطرون عندها إلى التصرف بما ليسوا مقتنعين به أصلا من قيم، حال الشباب الذين يعانون صراعًا داخليًا يصل بهم إلى حد الشعور بالضياع نتيجة ما يصادفونه من ازدواجية معايير، فيعبرون عن سخطهم إزاء الوضع القائم ويزداد إحباطهم عندما يصطدمون بأناس اختاروا لأنفسهم هوية: الدجل، الغش، السرقة، اللامبالاة، الوصولية، الجشع، فيختار عندها هذا الشباب إما العزلة، أو العنف وسيلة لحماية الذات من السقوط والهزيمة، أو الانتقال من العالم المثالي الذي بناه على قيم سليمة، إلى واقع غير إنساني يختصره بمقولة: «إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب»، ليتمثل حينها قيمًا أخرى مغايرة قائمة على لا أخلاقية الذات والقوة البدنية.

إزاء هذه المتغيرات كان من الطبيعي أن تتعرض منظومة القيم المنتشرة في مجتمعنا الشرقي لمجموعة من «التعديلات» المهمة لصالح التكيف مع التحولات الاجتماعية سواء كان ذلك في حراك مهني (من قطاع لآخر) أو مكاني (من الريف إلى المدينة أو إلى المهجر) أو في بنية العائلة لناحية انحسار وظيفة السلطة من الرجل على أبنائه واستقلاليتهم، أو في تغير المكانة الاجتماعية للمرأة وإعطائها أدوارًا فاعلة تجاه الأسرة (خاصة إذا كان الزوج مهاجرًا) أو في المجتمع (مع العمل الوظيفي)، كل هذه المؤشرات كانت نتيجتها المباشرة وغير المباشرة تحولًا اجتماعيًا ومعرفيًا وذهنيًا وحدوث انتقال

محوري ملموس لمنظومة القيم السائدة، يبدأ من داخل العائلة في تكوينها البنائي المستجد عبر وجوه معينة (انخفاض في عدد المواليد/ حجم العائلة / نمط العلاقات السائد بين الزوج والزوجة، بين الصغار والكبار/ انحسار السلطة الأبوية ـ الطاعة/ تأنيث الأسرة/ وإعادة النظر في مسألة الشرف والاحتشام) التي أخذت تفاعلاتها تظهر شيئًا فشيئًا، ودفع مثل هذا التحرير المتزايد في حياة الشباب والنساء ـ في المحصلة النهائية ـ إلى حدوث انتقالات نوعية ومحورية ملموسة في عالم القيم، بتنا نلاحظ معالمها ومظاهرها استتباعًا في طريقة تعاملنا، تواصلنا، تصرفاتنا وحتى أحاديثنا وآرائنا على نحو ما أظهرته تقارير المستجوبين اللفظية.

obeikandl.com

استطلاع رأي (2)
الجنوسة في فهم الشباب اللبناني[1]
ثبات في الأحكام وتبدل في المواقف

المدخل المنهجي:

ما تؤكده الدراسات النفسية أن الشباب يمرون بفترة مأزمية قوامها الرغبة في تشكيل هوية ذاتية قائمة على قاعدة الانفصال والفردانية، تترافق مع مراحل تطورهم البيولوجي ونمائهم الاجتماعي والنفسي، ومثل هذه الرغبة يشوبها كثير من الغموض وصعوبات تكيف وتقلبات آراء تتجلى في أكثر من مجال منها: التعليم والخيار المهني / الخوف من المستقبل/ تكوين المعارف والصداقات/ كيفية التعامل مع الإحباط العاطفي/ انهيار القيم وانقلاب المعايير **ومشكلة العلاقة مع الجنس الآخر**. وغيرها من الأزمات التي يعتبرها (أريكسون) بأنها أزمة جيل وأزمة أيديولوجيا في المجتمع، باعتبار أن هناك تفاعل بين الهوية والأيديولوجيا. وحتى لا يكون البحث شموليًا للمآزم التي تتعلق بالشباب توقفنا عند أكثرها جدلًا في مختلف الثقافات ألا وهي العلاقة مع الجنس الآخر، فهي اليوم وربما في كل عصر تبدو الهاجس الحاضر على الدوام في أذهان الشباب والفتيات على حد سواء، ولأنه يشغل حيزًا من الاهتمام والتفكير ارتأينا أن نتبين مقتضيات هذا الهاجس في إشكاليات منها:

(1) نُشر في مجلة «إضافات»، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد السادس، ربيع 2009، بيروت، لبنان.

obeikandl.com

وفق أيّة معايير تقوم عليه علاقة الشباب بالفتيات اليوم؟

ما هي التوجهات القيمية التي تحكم نظرة كل منهما للآخر؟

وهل هناك تحولًا في النظرة على مستوى التصور والتصرف؟

في سبيل الإجابة قررتُ ومجموعة من طلاب الجامعة اللبنانية خلال ربيع 2008 استقصاء أكبر عدد ممكن من آراء الشباب فوجدنا من المناسب اعتماد أسلوب الاستقصاء الإحصائي عبر الاستمارة المقننة، وهو أسلوب يساعد ـ وإلى حد كبير ـ على جمع معلومات وتفضيلات واقعية سيعبّر عنها الشباب من خلال أسئلة الاستمارة المفتوحة بحيث يصبح بالإمكان التعرف على أفكاره/ آرائه/ مواقفه اتجاهاته الحقيقية ورسم معالم الأوضاع التي يمثل، ولأنه يصعب دراستهم بالأعداد الكثيرة تم اختيار جزء منهم فكانت عينة ممثلة من بعض المناطق اللبنانية، يتحدرون من مختلف الانتماءات الدينية وينتمون إلى بيئات حضرية وريفية ومن أعمار شبابية متفاوتة.

كذلك روعي خلال الاستطلاع التركيز على استكشاف نمط العلاقة السائدة بين الجنسين من خلال الوقوف على آراء الشباب سواء على صعيد الموقف المبني أو على صعيد السلوك اليومي المعاش، وثمة فارق منهجي بين هذين البعدين: **الموقف والسلوك**، فالموقف هو عبارة عن نظرة تقييمية للأحداث والأشياء والظواهر والعلاقات تشير إلى حكم معين (تصور ذهني) يكون أقرب ما يكون إلى الرأي أو الاتجاه، ترسّخ بفعل تراكم ثقافة وتربية خاصة حتى ترك آثاره على طريقة التفكير والتصرف. من هنا يعتبر الموقف هو المحرك الرئيس للسلوك. .وبذاك يصبح السلوك هو تجسيد الموقف/ التصور الذهني الذي يظهر على مستوى الفعل ولا يقف عند حدود الانطباع المبدئي أو العام. مثال: ورد في الاستمارة:

* هل تقبل الارتباط.

- **(للفتيات) بشاب له علاقات سابقة مع فتيات نعم / لا**
- **(للشباب) بفتاة معروف عنها بعلاقات سابقة نعم / لا**

أو

* ما هو موقفك الشخصي في فكرة أن تبادر البنت إلى طلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيد/ين؟

نعم (لماذا).....

لا (لماذا).....

في الموقف المتبنّى سيجاوب أكثرية المستجوبين بلا، نظرًا للبعد الثقافي السائد في مجتمعنا الشرقي الرافض لفكرة الارتباط بفتاة تشوبها شائبة، أو كأن يكون الأمر مخالفًا للعادات والتقليد كما في السؤال التالي.. ولكن كي لا نبقى على مستوى التوقعات بالإجابات الممكنة أحببنا أن نستطلع سلوك الشاب للموقف المتبنّى على صعيد الفعل فكان إدراجنا لسلوك آخر مفاده:

* (للشباب) ما هي ردة فعلك إذا تقدمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟

.....

* هل تقبل الزواج بفتاة قد اعتدي عليها جسديًا؟ نعم لا

* هل تتسامحين بخطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟ نعم لا

وفق هذا المنظور في صياغة الاستمارة بين مواقف وسلوك يتكشّف لنا مستوى الظروف التقليدية المحيطة بالمستجوب وحدود التصورات المفترضة أو المطلوبة أو الممكنة لتوجهات جديدة في العلاقة، عبر تقييم الشاب أو الشابة (المستجوب) للخلفيات الموقفية المتبناة لديهم. وتحديد السلوك الفعلي للشباب في وسطنا الاجتماعي كيف يفكر؟ إلى ما يطمح؟ كيف يجد ما يتصوره.؟ سواء كان ذلك عبر ردات فعل (أجوبة الأسئلة المغلقة) أو سواء كان على مستوى السلوك المتخذ من خلال الآراء الحرة (الأسئلة المفتوحة) في النظرة للآخر ولما يرغب أن يكون عليه.

الإطار النظري

لو سألنا الشباب: كيف ينظرون إلى البنات؟ ثم عاودنا الكرّة وسألنا رأي البنات في الشباب.. لوجدنا ثمة أفكار منمطة تحكم تقييم أحدهما

للآخر. .على أن تفسير هذه الأفكار يختلف باختلاف المجتمعات فما يقوله شباب مجتمع شرقي (محافظ) يختلف عن ما يقوله شباب مجتمع آخر امتاز بالمدنيّة والانفتاح الاجتماعي والاقتصادي، حتى ضمن المجتمع الواحد قد نلحظ تباين بين الجنسين باختلاف درجة وعي أبناء هذا المجتمع ودرجة تمثله للأفكار المستحدثة أو مدى تمسك فئة دون أخرى بالعادات والتقاليد. . فلو أخذنا المجتمع اللبناني مثلًا نجد ظواهر التقليد والمحافظة إلى جانب مظاهر الحياة الغربية، وكثير ما يتأرجح بنُوه بين هذه وتلك: ففي حين يطمح إلى أن يتمثل بالحياة الغربية وثقافاتها وأفكارها، يتواجه مع جماعته التي تتمسك بالعادات والتقاليد، كما هو الحال في مسألة الزواج المدني مثلًا، فمنهم من يؤيده من حيث المبدأ باعتباره خيارًا حرًا لمن يريد أن يرتبط. . ولكن في قرارة أنفسهم أو عند مواجهتهم الواقع الأثني الذي يعايشون تجدهم يتراجعون عن تأييدهم للفكرة، أي هم يؤيدونه من حيث المبدأ إنما يرفضون أن يطبقونه لأسباب تقليدية محضة.

* هل يعني فارق الجنس بالضرورة فارق رأي؟

ماذ يعني أن يكون الإنسان رجلًا/ وماذا يعني أن يكون امرأة؟ قد نعتقد للوهلة أن يكون المرء رجلًا أو امرأة يرتبط الأمر بالخصائص البيولوجية ـ الجسدية التي ولدنا بها، غير أن مفهوم الذكورة أو الأنوثة يأخذ بعدًا واهتمامًا بحثيًا أدق عندما يتعلق الأمر في الفوارق القائمة على الخصائص الفكرية والعقلية وحتى الاجتماعية. . فبعض الناس سواءً كانوا ذكورًا أو إناثًا يعتقدون أنهم ولدوا بالجسم الخطأ من الوجهة الاجتماعية ولو كانوا من الجنس الآخر لتغيرت نظرة الناس إزاءهم، فهم برأيهم يحملون وزر نظرة المجتمع إلى «هو» ماذا يعني؟ وإلى «هي» ماذا تعني؟ ذلك أن تصورات الهوية الجنوسية رغم أنها تشكل جانبًا أساسيًا من شخصياتنا إلا أنها أضحت تسهم في كثير من القرارات والخيارات فيما يتعلق بتفاعلنا الاجتماعي اليومي حيث «إننا ـ من الوجهة الاجتماعية ننتج ونعيد إنتاج الجنوسة من خلال الآلاف من الأفعال والممارسات التي نزاولها كل يوم».

وتختلف المقاربات التي ينتهجها الدارسون في تفسيرهم للأدوار الاجتماعية القائمة على أساس الهويات الجنوسية، ومحور الجدال يكاد يختصر في سؤال واحد مفاده: ما قيمة وحجم المؤثرات الاجتماعية الحاصلة بناء على فوارق الجنوسة؟ ذلك أن البنية الاجتماعية لا زالت تقف عند حد الهوية الجنوسية على رغم التغييرات السياسية والاقتصادية في النظرة إلى كليهما بداعي المساواة واحترام الحقوق، فعلى سبيل المثال أظهرت بعض الدراسات التي أجريت حول تفاعل الوالدين مع أطفالهما أن هناك اختلافات مميزة في أسلوب التعامل مع كل من الأولاد والبنات حتى في الحالات التي يعتقد بها الأبوان أنهما يعاملان الذكور والبنات بصورة مماثلة، ويتكرس هذا «التميز» بشكل أوضح عندما نقدم للمجتمع أجيالًا تربت وترعرعت على حكايات وبرامج تلفزة يلعب شخصياتها فيها الذكور أدوار المغامرة وأنشطة القوة والنفوذ، بينما يجري تصوير البنات باعتبارهن مخلوقات سلبية وساكنة لأدوار محض أسرية (إنجاب/ رعاية/ تربية/ تدبير منزلي).

على ذلك توزعت تفسيرات علماء الاجتماع للاختلافات القائمة بين الجنسين وأوجه عدم المساواة في ثلاثة اتجاهات يمثل الاتجاه الأول: اعتبار الخصائص البيولوجية أساسًا لاختلاف السلوك بين الرجال النساء، وهناك ـ كاتجاه ثانٍ ـ من يضفي أهمية مركزية على عملية التنشئة وتعلم الأدوار الاجتماعية، وهناك من جهة ثالثة من يعتقد أنه لا الجنوسة ولا الجنس يقومان على أسس بيولوجية بل هما نتيجة تصورات اجتماعية. . .وبناء على هذا الاتجاه أصبح يُميّز بين مصطلحي الجنس والجنوسة، فالأول يشير إلى الفروق الفيزيولوجية بين الذكور والإناث، أما الجنوسة فتعني الأفكار والتصورات الاجتماعية لمعنى الرجولة والأنوثة وهنا بيت القصيد في عملنا البحثي.

* الدور الجنوسي:

في إحدى عيادات الأطفال اصطحب والد ابنه المريض في منتصف نهار يوم عمل، وبعدما تقدم من سكرتيرة الطبيب لتسجيل حضوره جلس ينتظر دوره، إذاك همست السكريترة في سرها: يا له من أب رائع؟ ولكن هل كانت

ستقول ذلك لو جاء الطفل برفقة والدته؟ بالطبع لا، لأن الدور الجنوسي للذكور والإناث لا يتحدد فقط في طريقة عملنا (مهن للرجال وأخرى للنساء) أو تصرفنا (هذا يليق بالإناث / وذاك لا يليق بالذكور) وإنما يتحدد من خلال توقعات الآخرين وتفاعلنا معهم. فكثير من الناس لازالوا يتمكسون بالتوقعات المفترضة لكلا الجنسين، فهم لا يتصورون مثلًا أن يكون كابتن طائرة سفر «امرأة» أو أن يتأخر «رجل» عن عمله صباحًا لأنه كان يهتم بحوائج ابنه الصغير. وبالرغم منه أصبحت المرأة «مساوية» للرجل في كثير من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية.

لا زال الدور الجنوسي حاضرًا بقوة في أذهان الناس ومعظم المجتمعات حتى لدى الثقافات الغربية التي سبقت المجتمعات العربية إلى تكريس المساواة عبر مفهوم «الجندرة»[1]، حيث هناك سياق واضح محدد لكل من الأنوثة وما يتتبع ذلك من مهام، وسياق آخر للرجولة وما يتطلب هذا المصطلح من قيم كي يبقى الرجل رجلًا، وليس من الصعب أن تلاحظ ذلك، فالأمثلة الواقعية في حياتنا اليومية العادية كثيرة حيث النظرة لكلا الجنين لا زالت منمطة على معايير ثابتة من ذلك مثلًا:

- ✓ تدخين سيدة للسيغار الكوبي في مكان ما... له نفس استغراب حمل الرجل «محفظة نسائية» أثناء التسوق.
- ✓ أبطال الحكايات الشعبية ونجوم الإثارة في أفلام التلفزة مخصوصة بالرجال ومسائل الإغواء بالنساء.
- ✓ من الغرابة جدًا أن تبصق امرأة في الطريق، أو تتكلم كثيرًا عن السيارات أو تفتح الباب لرجل يرافقها، يوازيه غرابةً قيام رجل بطلاء أظافره أو

(1) أصل المفهوم من التعبير الأجنبي Gender، وتعرّف الموسوعة البريطانية الهوية الجندرية بأنها شعور الإنسان بنفسه كذكر أو أنثى، وهي ليست ثابتة بالولادة بل تؤثر العوامل النفسية والاجتماعية بتشكيلها.
ويفهم هذا المصطلح في الأدبيات العربية على أنه مساواة المرأة للرجل وترقية دورها في التنمية وأهميتها في العمل وزيادة المشاركة في الدخل والأعباء الحياتية مع الرجل ـ الزوج (المؤلف).

obeikandl.com

وضع ماكياج أو يزيل شعر جسمه أو يبكي أمام حشد من الناس كما تفعل النساء.

هذا يعني أنه نادرًا ما تتغير المواقف والسلوك والنظرة إلى طبيعة الجنسين ليس البيولوجية فحسب وإنما الاجتماعية. وقلما يحدث التغيير حول الدور الجنوسي لكل من الرجل والمرأة، وهذا ما دفع الرجال المشجعين لنضالات المرأة في التحرر إعادة النظر بآرائهم بانتقاد التحرك النسوى المفتوح على احتمالات مضاهاة النساء لهم بعدما بدأت تتبين مساوئه الأسرية والنفسية والاجتماعية.. إزاء ذلك أخذت التساؤلات تطرح: هل تعي المرأة صحة ما تقوم به وإنه لا عجز في الفطرة البيولوجية للدور؟ هل يجب أن تتابعه حتى النهاية أم إنها تتراجع أمام حقيقة كيانها امرأة حيث تتكامل في مواقع مخصوصة بها دون غيرها؟ هذا ما يعيدنا إلى تحديد الدور الجنوسي على أنه التوقعات الاجتماعية المفترضة لكل من المرأة والرجل على حدة.. والمشكلة ليست في أن يقوم أحدهما بمهام الآخر بل تكمن في النظرة الاجتماعية «المعيبة» التي تلاحق الرجل فيما لو «تأنث بدوره» والمرأة فيما لو «استرجلت» ليس في دورها وحسب وإنما في حديثها وشكلها.

الإطار التطبيقي

قدمت المعطيات المستقاة من استطلاع ميداني موسع إجابات هامة حول التساؤلات المطروحة، وانسجامًا مع التبويب المعتمد في الاستمارة سوف يتم استعراض بعضًا من هذه النتائج سيما عن:

1. أبعاد العلاقة بين الشباب والبنات.
2. الآراء الخاصة بمفهوم الارتباط العاطفي والزواج.
3. آراء اجتماعية عامة.

المحور الأول: العلاقة بين الشباب والبنات.

كيف يقيّم الشباب البنات وكيف يقيّم البنات الشباب؟ بكلمة مختصرة

كيف ينظرون إلى بعضهم بعضًا؟ تعددت الإجابات وتنوعت في أكثر من صفة حتى وصل بعضها إلى وصف الآخر بتعابير سلبية صارخة مثل (وصف البنات للشباب بأنهم «هُبل» (تعبير عامي لبناني يعني الحماقة الفارطة) أو وصف الشباب للبنات بأنهن مجنونات / مائعات/ فاسدات / وغيرها، وقد حاولنا إحصاء هذه الصفات في المعطيات التالية:

* **توصيف الشباب للبنات:** متهورات (24%) متحررات (20%) ضائعات (12%) جميلات (8%) متشاوفات (6%) وصفات أخرى مثل: قهارات / غدارات / كاذبات / فاشلات/ .....

* **توصيف البنات للشباب:** متهورون (38%) ضائعون (20%) واعون (10%) غير جديين (6%) وصفات أخرى منها: ماديون / عصبيون/ محبطون/ أنانيون/ ممتازون / طموحون ...

من توصيف كلا الجنسين لبعضهم بعضًا نلاحظ أن إجابات البنات كانت أقل حدة وأكثر مجاملة وتهذيبًا من الشباب فأكثرهن وصف الشباب بصفات طيبة مثل أنهم: ممتازون / طموحون/ منفتحون/ رائعون.. بينما في المقابل نجد قلة قليلة من الشباب وصف البنات بصفات حسنة، والملفت للنظر أن توصيف البنات كان يطال الانطباع والتصرف والسلوك والتفكير، في حين جاء توصيف الشباب للبنات مقتصرًا على الجسد والجمال والغرور والموضة وما إلى ذلك من توصيفات حول الشكل. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه نتاج بنية عائلية ـ تقليدية قوامها توزع هرمي يكون فيه تقسيم العمل على أساس العمر والجنس لينسحب هذا التراتب الهرمي في مفاهيمه على علاقة الذكور بالإناث حيث يحتل فيها الذكور المكانة العليا والنساء مكانة دونية في أسفل الهرم الاجتماعي. وتنعكس صورة هذا الواقع التقليدي في مواقف وسلوك، فالذكور أولَى بالسلطة والمسؤولية والإطاعة والاحترام وإصدار الأوامر والنصائح والإرشادات والتهديدات.. بينما النساء يجب أن يهتمين بالأمومة والأمور الزوجية والمهارة في الشؤون المنزلية، لأن المجتمع لا يُقدّر الأنثى إلا بمدى نجاحها في هذه الأدوار بجدارة.

وانسجامًا مع هذا الإطار التقليدي للتنشئة الاجتماعية يشب ذكور المجتمع العربي ـ الشرقي وفق قاعدة: «الفوقية على النساء»، تتمثل مبادئها في أن تكون المرأة مطيعة / مخلصة / أمينة / تحترم أقربائها/ تعيش راضية دونما تمرد على أي حال/ وأي سياق تقوم به خارج الأدوار المنوطة بها هو من قبيل الخروج عن المألوف تبدو فيه الأنثى مستهجنة، لهذا لاحظنا توصيف الشباب كيف بدا سلبيًا لأنه يرى في الفتاة ما هو مغاير لبنيته التقليدية فهي في نظره أصل الغواية والفتنة والتعاسة والشر، وما تعبيرهُ هذا إلا لأن مجتمعهم صوّر لهم ذلك وفق مفاهيم تربوية تنمطت لديهم وأصبحت بمثابة أحكام صادرة بحق «الجنس الآخر كأنثى» تبرز بين حين وآخر عند مستوى علاقتهم بهن.

ووفق هذا المنظور هل من علاقة صداقة بين الشباب والفتاة؟ وماذا تعني هذه الصحبة؟ كيف ينظرون إليها وما رأي البنات في المقابل بمستوى علاقتهن بالشباب؟ كيف يقفن عند مفهوم الصحبة خاصة وإن بعض الدراسات أشارت إلى أن البنات لا يرون في العلاقة مع الشباب نوعًا من الحرية بل وسيلة إلى هدف تقليدي هو الزواج، فهن أصبحن يميزن بين فئتين من العلاقات مع الشباب: الصاحب والصديق، فما تعني العلاقة بين الطرفين؟ نطرح هذه التساؤلات لأننا ننتمي إلى مجتمع تقليدي يعتبر الارتباط بالجنس الآخر دون ارتباط رسمي (بزواج أو قربى) أمرًا مشكوكًا به، لجهة السمعة / والعيب / والقيل والقال عن واقع هذه العلاقة. فأين الشباب اللبناني كنموذج عن الشباب العربي في اتجاهاتهم نحو الفتيات؟ وماذا يكنّ الفتيات بدورهن تجاه الشباب في ظل التغييرات الاجتماعية التي يعيشها، هل لا زال تقليديًا في تفكيره ومحافظًا في سلوكه، أم أنه منفتح ويعتبر علاقة الصحبة مع أي إنسان أمرًا بدهيًا من العلاقات الاجتماعية الموزونة؟ حول ذلك قُدّمت مجموعة من الأسئلة نبرزها بالمعطيات التالية:

* هل تويد علاقة الصداقة بين الشاب والفتاة، ا) نعم أؤيد. . . .ب) لا أؤيد، لماذا . . . . . .

* (للفتيات) هل يمانع أهلك صداقتك للشباب والخروج معهم
.....

* إذا اكتشف أهلك علاقة صحبة/ صداقة حميمية تربطك بشخص من الجنس الآخر هل يسبب لك ذلك:

1) حرجًا ـ 2) خلافًا ـ 3) مشكلة ـ 4) تفهم ـ 5) لامشكلة ـ 6) غير ذلك:

ليتبين أن أكثرية المستجوبين من كلا الجنسين مع الصداقة، فالذكور (48%) والإناث (82%) على حد سواء هم معها في مقابل (14% ذكور) و(18% إناث) قالوا لا يؤيدونها، ولعل استحواذ مؤشر نعم على نسبة عالية يعود إلى اهتمام الإنسان بالصداقة إذ لا يمكن له أن يعيش بمفرده بل لا بد من أقرناء، فالصداقة تقدّم خيارات سارة في الحياة، لذا هي قدس الأقداس كما يوصفونها. وحول ما إذا كان الأهل يمانعون صداقة البنات لشاب، وهل بالإمكان استضافته في المنزل كصديق أو زميل أو حبيب.. على ذلك أجاب 34% من الفتيات بأن ذووهم يمنعوهن من مصادقة «شاب» بينما أشارت ما يقدر بثلثي العينة (64%) بأنه لا مانع في ذلك، ولكن ماذا يحدث إذا عرف الأهل أن ابنهم أو ابنتهم على علاقة بأحد من الجنس الآخر هل يتسبب ذلك أية مشكلة؟ وما طبيعة هذه المشكلة: حرجًا / خلافًا / أم يتفهمون الأمر؟ يعتبر حوالي نصف العينة (49%) من كلا الجنسين أنه يحدث أحيانًا سوء فهم بين الأهل، مقابل ما نسبته (46%) أجابوا أبدًا، ولكن من بيان النسب تبين اختلاف الشباب عن البنات لناحية النسبة الأعلى، فالشباب لا يحبذ الأمر (27%) على عكس الفتيات (29%) منهن قالوا أحيانًا، وهذا معطى معقول في مجتمع ذكوري حيث يسمح فيه للذكور القيام بأمور محظورة على الفتيات، حتى في مجال التعارف ومصادقة الآخرين، فالأهل دائمًا أدرى بمصلحة أبنائهم وخوفهم الدائم من مصاحبة رفاق سوء يبقى حاضرًا كي لا ينحرف أبناؤهم، لهذا يشتد التصادم عندما يقوم شاب بمصادقة أحدهم لا يعجب الأهل، فكيف الحال إذا تعلق الأمر بمصاحبة بنت أو مصاحبة بنت لشاب.

المحور الثاني: مفهوم الزواج

أن تسأل مجموعة من الأفراد المتزوجين عن الأسباب الذي دفعتهم إلى الزواج فإن كل واحد سوف يجيب بأن زواجه تم بناءً على مواقف شعورية متعددة منها: تبادل الحب مع شخص آخر، تحقيق الاستقرار النفسي والعاطفي، الاستجابة لرغبة الوالدين، الهروب من الوحدة، الحصول على الرفقة والإشباع الجنسي، الشهرة، الوصول إلى مكانة اجتماعية وأسباب أخرى..ولكن هل الرأي ذاته بالنسبة لغير المتزوجين؟ لأن الزواج يستحوذ تفكير الشباب والشابات على الدوام، وباعتباره هو إحدى العلاقات التي تقوم بينهما، ما هي نظرتهم إليه؟ كيف يقيّمونه؟ هل لا زال تقليديًا في مفهومه أم تغير في صورته مع الظروف الحاضرة، إلى أي مدى ما زلنا نعيش واقع الشباب الهائم في الحب، المتحدث عن فتاة أحلامه؟ وهل هناك شباب وشابات منعزلين عن الجنس الآخر؟ محور هذا التوجهات وردت في استطلاعنا عبر أسئلة هادفة أبرزها:

1 ـ كيف تقيّم زواج اليوم برأيك؟

2 ـ ما هي مواصفات الشريك التي ترغبها.

3 ـ هل تقبل الارتباط:

ـ (للفتيات) بشاب له علاقات سابقة مع بنات نعم لا

ـ (للشباب) بفتاة معروف عنها بعلاقات سابقة (من واحد لواحد) نعم لا.

4 ـ هل تقبل الزواج بفتاة قد اعتدي عليها جنسيًا؟ نعم لا

5 ـ هل تتسامحين بخطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟

نعم لا

6 ـ هل توافق على الزواج من شريك ينتمي إلى طائفة غير طائفتك:

نعم لماذا: ...../لا، لماذا.....

obeikandl.com

7 ـ أي من هذه الأسباب تعتبرها العائق الأهم أمام عدم التوافق الزواج:

8 ـ (للإناث) ما هو موقفك الشخصي في فكرة أن تبادر البنت إلى طلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيدين.

نعم (لماذا).....

لا (لماذا) .....

(للشباب) ما هي ردة فعلك إذا تقدمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟

.....

حين يتناقش مجموعة من الشباب غير المتزوجين عن رأيهم في الزواج فإن الآراء قد تتعدد، حيث يخطط كل فرد لزواج يلائمه ويرضيه، وبين خبرة المتزوجين في تجربة الزواج ورغبة المقبلين عليه من الشباب، يبدو الزواج بمفهومه العام النمط الاجتماعي الذي يجد قبولًا واسعًا ومشروعية لإقامة علاقات بين الجنسين، فالتعاون والتشارك وبناء حياة أسرية عوامل تجذب الأفراد نحو بعضهم بعضًا وبالتالي نحو الزواج. وهذا أظهره توصيف الذكور والإناث للزواج في إجاباتهم المتقاربة، ففي الوقت الذي يرى فيه الشباب الزواج: استقرار/ مسؤولية/ ارتباط مقدس/ حياة سعيدة/ التزام / تعاون/ بناء أسرة/ شراكة / راحة بال/ ثمر حب، نجد الفتيات أيضًا ينظرن إلى الزواج على أنه: حياة ثانية قوامها المسؤولية والاستقرار والتفاهم والأمان والشراكة والرباط المقدس لعلاقة أبدية. ورغم أن أكثرية الجنسين وصف الزواج بتعريفات إيجابية برزت تعابير مغايرة عنه مثل: الزواج نهاية الإنسان/ قاتل الطموح/ لا شيء ...لا معنى له/ قفص ذهبي / حدٌ للحرية.

ولمعرفة توجهات الشباب نحو العلاقة مع الآخر في الزواج بشكل أكثر دقّة، قُدّم للمستجوبين سؤالًا هامًا حول المواصفات التي يبحث عنها لدى شريك الزواج المستقبلي..على أن يحدد من الخيارات المرفقة، فتبين بالنتائج:

جدول رقم (1) توزع المستجوبين بحسب تحديدهم لمواصفات الشريك.

المواصفات	الذكور	الإناث
غنية/ غني	%4	صفر
متعلمة / متعلم	%34	%42
موظفة / موظف	%2	%10
من عائلة معروفة	%6	%4
ذو/ ذات شخصية استقلالية	%22	%28
لديها جنسية/ مغترب	%6	%2
لا مواصفات لدي	%6	صفر%
غير ذلك	%14	%8
لا جواب	صفر	%2

يلاحظ من الجدول أن مستوى التعليم هو العامل الأبرز الذي اشترطه كلا الجنسين، لأن أغلبهم جامعيون ولا زالت تدور في أذهانهم أهمية أن يكون الآخر متعلمًا وذو مستوى علمي، لما تهيّأه «الشهادة» من أبواب عمل في المستقبل وهذا ما يُشعر الفتيات بالأمان إذا ما عاكستهم الأيام بظروف صعبة، وأن يشترط الشباب المستوى العلمي فلأسباب عدة أهمها تقديره لمسألة الوعي والإدراك عند الفتيات في تعاملهن مع المجتمع. وبعد مؤشر التعليم حلت الشخصية ثانيًا وخاصة من قبل الفتيات، باعتبار أنهن يرفضن شابًا ذا شخصية ضعيفة أو مسحوقة لا تحسن تدبير أمرها في المواقف الصعبة.. وأن يشترط كلا الطرفين وجود الشخصية فذلك من باب التمرد على تربية اجتماعية جامدة لا زالت تسري في أوساطنا، قوامها تنشئة أسرية قائمة على الاتكالية والعجز والتهرب وعدم المسؤولية. فالآباء الشرقيون لازالوا يقررون عن أولادهم دون مناقشة. وإلى جانب الرغبة بأن يقترن الفتيات بصاحب عمل (موظف) حيث الوظيفة تعني دخل دائم يؤسس لحياة مستقرة، نجد رغبة الشاب الاقتران بفتاة لديها جنسية أجنبية حيث يتيح له ذلك سرعة السفر والهجرة وهي رغبة موجودة في ذهن شباب الريف اللبناني -خاصة البقاعي والعكاري ـ لما يقدمه الاغتراب من فرص حياة أفضل. ولم نقف عند

تقرير الصفة المفترضة في «شريك المستقبل» حيث التقرير اللفظي غالبًا ما يكون مغايرًا للواقع لأجل ذلك وضعنا المستجوبين أمام مواقف أكثر جرأة تنبئ عن الرأي الفعلي فيما لو تم، ماذا تكون ردة فعله؟ ومن هذه الأسئلة:

1 ـ هل تقبل الارتباط.

أ ـ (للفتيات) بشاب له علاقات سابقة مع بنات نعم / لا.

ب ـ للشباب) بفتاة معروف عنها بعلاقات سابقة نعم / لا.

عن ذلك أظهرت المعطيات مفارقة واضحة بين رأي الشباب والبنات في مسألة الاقتران بآخر له علاقات سابقة فرغم أن نصف عينة البنات (50%) رفضت الارتباط بشكل قاطع نجد أن نصفهن الآخر تقريبًا (46%،) يقبلن بالارتباط ويبرر ذلك بأنه من غير المعقول أن لا يكون للشاب علاقات مسبقة، ويرون أن كل الشباب لهم ماض فلا يمكن محاسبته عما سبق إذا قرر فتح صفحة جديدة مع فتاة أخرى (والتي قد تكون أنا).

أما بالنسبة للشباب فالموقف والرأي مختلف تمامًا فهم يرفضون ألبتة (86%) على تجنب الزواج من فتيات لديهن علاقات عاطفية سابقة (سواء كانت معهم أو مع غيرهم) بسبب عدم ثقتهم بها أو خوفًا من أن تكون تلك العلاقة قد وصلت إلى حدود جنسية مباشرة.. وهذا ما يرفضه الرجل الشرقي في قرارة ذاته. ومن الأسئلة في هذا السياق وُجّه للمستجوبين السؤال التالي:

1 ـ (الشباب) هل تقبل الزواج بفتاة قد اعتدي عليها جنسيًا؟ نعم لا

2 ـ (الفتيات) هل تتسامحين بخطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟ نعم لا

فتبين: أن 38 % من الشباب يقبلون بينما، 58% يرفضون، أما بالنسبة للفتيات فتبين رفض أكثري لعدم المسامحة (76%) قلن لا، مقابل (24%) لا يرون ضيرًا في ذلك...هنا أن لا تتسامح الفتاة قيام شريكها بعلاقة مع فتاة أخرى قد يكون أمر بدهي لأنه يُعتبر من باب الخيانة وإهانة مباشرة لها، لذا تعتبر عدم مسامحته أولى فهن يعتبرن أنه من الأفضل أن تكون الأمور واضحة

منذ البداية وأي خلل في الميثاق من شأنه أن يهز متانة العلاقة، وأن يرفض الشاب الشرقي الارتباط بفتاة سبق وتعرضت لاعتداء جنسي أو فعلته هي بملء إرادتها أمر محسوم الرفض لأنه ربيب تربية اجتماعية محافظة لا زالت تقول بأن شرف البنت في عذريتها وليس عليه أن يتقرب من فتاة سمعتها «غير نظيفة»...

رغم أن المسألة الجنسية أصبحت في الغرب جزءًا من الحريات الشخصية وأمر الارتباط بأية فتاة أمرًا مقبولًا لا حذر فيه، إلا أن المجتمع الشرقي لازال يشدد في ثقافته على النظر بحذر إلى العلاقة القائمة بين الجنسين إذا تمت خارج إطار الزواج أو قبله، فعندما يتقابل اثنان من الجنسين (بعيدًا عن الأعين أو منفردين) فغالبًا ما يؤشر إلى ذلك ب«المحظور» نتيجة المناخ الاجتماعي المتأثر دينيًا والذي يعتبر مثل هذه العلاقات في خانة الحرام أو غير الجائز، ولأننا في مجتمع يوزن الأمور دائمًا بمعيار الدين جاءت نسبة الرفض عالية. لكن الملفت للانتباه هو إجابة نسبة من الشباب عن عدم ممانعتهم الارتباط بفتاة تعرضت للاغتصاب، وهذا يمكن إرجاعه إلى درجة تحرر معينة لدى الشاب اللبناني، أو هو رأي ممن تلقوا و تابعوا دراستهم في جامعات غربية حيث يرون أن ليس البنت دائمًا من تصنع الخطايا بل غالبًا ما تكون الخطيئة من حكم المجتمع الجائر فلِمَ نحاسبها عليه؟

وبما أن العلاقات اللامشروعة خارج إطار الارتباط الرسمي محظورة ومرفوضة من قبل الطرفين ويمكن أن تؤشر إلى نسفه فيما لو حدثت، استعرضنا أمام المستجوبين جملة عوائق يمكن أن تحول دون الزواج بهدف معرفة رأيهم: هل الجنس وحده يزعزع العلاقات؟ في سياق ذلك ـ قدمت جملة خيارات أخرى هي:

جدول رقم (2) توزع المستجوبين بحسب رأيهم للأسباب التي تحول دون التوفق الزواجي.

العائق	الذكور	الإناث
فارق العمر	%22	%10
فارق الدين	%32	%48
فارق البلد	%6	%0
فارق العرق	%0	%4
فارق التعليم	%24	%16
فروق أخرى	%10	%18
لا جواب	%6	%4

الملاحظ تقارب واضح بين كلا الجنسين في اختيار فارق الدين بنسبة مرتفعة باعتباره مؤشرًا ممكنًا لعدم التوافق في الزواج وسبب ذلك أرجعه المستجوبون إلى اختلاف الثقافة الدينية والعادات والتقاليد التي تفرضها كل ديانة على أتباعها قد تنعكس سلبًا على حياة الشريكين: في أي محكمة سيتم الزواج؟ تنشئة الأطفال أيّة عادات اجتماعية تناسبهم أكثر؟ إلخ.. ولوحظ ارتفاع هذا المؤشر بشكل لافت عند الفتيات ـ خاصة المسلمات ـ حيث يُحظّر عليهن دينهن الزواج من غير طائفتهن إلا إذا اتبع ملتهم وأشهر «إسلامه» وهذا ما لايحدث، لذا تفضل الفتيات عدم الذهاب في علاقة غير مضمونة النهاية بزواج إذا كان الطرفين من دينين مختلفين.. وهذا ما أكده معظم المستجوبين في سؤالنا التالي:

*** هل توافق على الزواج من شريك ينتمي إلى طائفة غير طائفتك؟** ليظهر أن 62% من الشباب قالوا لا مقابل 36 % قالوا نعم (ممكن) في حين أشار 14% من الفتيات بنعم مقابل 86% منهن أجبن بلا. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الزواج الداخلي بين أبناء المذهب الواحد أو من المنطقة القريبة هو الرائج والأكثر تقبلًا عن الزواج الخارجي وقليلون هم الذين يجرؤون على الزواج المختلط. ولعل سبب ذلك يعود ـ وكما أشار إليه السوسيولوجي (ريتشارد شيفر) ـ إلى احترام الشباب والشابات لرغبة آبائهم في أن يعيشوا حياة

شبيهة بحياة آبائهم، فإن اختاروا لهم الأهل زوجًا أو زوجة وهو ما يعرف بالزواج المرتب (ARRANGED MARRIAGE)يقبلون طوعًا به لأنه الأكثر استقرارًا وأكثر إدامة في المستقبل من الزيجات الأخرى، وثمة سبب آخر يلعب دوره هنا في دفع المقبلين على الأخذ به وهو أنهم يكونون ملتزمين دينيًا، حيث ـ لاحظ شيفر ـ أن الأفراد الأكثر تمسكًا بديانتهم يهمهم أن يكون الشريك من أبناء ملته، نظرًا لما تمليه كتبهم وتعاليمهم من تكريس عهد الله بالرباط المقدس ضمن الطائفة الواحدة وهذا ما لاحظه لدى الأقليات التي هاجرت إلى أمريكا من ثقافات تقليدية متدينة (الهنود/ الآسيويون/ المكسيكيون).

وهكذا نفترض أنه كلما كان الإنسان أكثر التصاقًا بجماعته الأثنية فكرًا ومعتقدًا واجتماعًا، كلما خف وقل لديه الزواج خارجها، وكلما ابتعد الشخص عنها لايجد حرجًا في أن يرتبط بآخرين من خارج ديانته، لهذا نجد كيف أن الزواج المختلط يكثر مع ذوي الاتجاهات الليبرالية والعلمانية.

وكي لا نبقى على مستوى التنظير والرأي المبدئي، قاربنا الآراء المقدمة بطرح واقعي يتمثل في سؤالنا الشباب: **ما هي ردة فعلك إذا تقدمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟** هل تقبل أو تحبذ الفكرة ليجيب **30 %** بنعم مقابل 20% بلا، بينما استغرب الآخرون السؤال ولم يبدوا رأيًا صريحًا وإنما تعليقات عابرة مثل قولهم: «تظهر لنا كم هي جريئة، يعني بتخوّف/ إذا فعلت الفتاة مثل هذا الشيء تفقد احترامها/ لا يجب أن تفعل كي تبقى على قيمتها/ باعتقادي يجب أن تشوف البنت حالها . . لأن الحلو بالبنت كبريائها». ثم عاودنا وسألنا الفتيات: **ما هو موقفك الشخصي في فكرة أن تبادر البنت لطلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيدين؟ 14 %** أشرن بأنهن مع الفكرة، بينما 30% منهن كن ضدها، لسبب أن: «كل له دوره في الحياة وهذه الأدوار مقدسة بين الاثنين وفق أصول/ الشاب في مجتمعنا لا يتخلى عن عقليته الشرقية إن تقدمت إليه واحدة سيظل ينظر إلى تصرفها على أنه شيء مستغرب وغير مقبول».

وفي الوقت الذي عبرت فيه أخريات عن تشجيعهم للفكرة انطلاقًا من حق الفتاة في التعبير عن مشاعرها، وبأنها فكرة جيدة فيما لو كنا فعلًا نؤيد

التطور الاجتماعي، وبأنه مثلما لا يوجد هناك اختلاف بين الشاب والبنت في كثير من المسائل كالتعليم وقيادة السيارة والعمل، لماذا يكون هناك تمييز في هذه المسألة.. نجد منهن من يرفضن الفكرة من حيث المبدأ باعتبار أنه يخالف عاداتنا وتقاليدنا، وإن فعلت البنت ذلك فقد يفقدها احترامها أو يقلل من قيمتها أو يحط من مستواها. حتى ذهبت إحداهن بعيدًا في توصيف الطرح بالقول: «إن قامت به الفتاة فهو: وقاحة وقلة أدب». تباين الإجابات بين كلا الجنسين يؤكد لنا ما افترضناه مسبقًا من أن شباب المجتمع اللبناني لا زال يعيش ازدواجية رأي وموقف، فمن جهة يشجع الأفكار المستحدثة وقد ظهر ذلك صراحة في مسألة تقدم الفتاة لطلب يد شاب فهو بنظر البعض من قبيل: الانفتاح، وإنه من حق الفتاة أن تعبر عن مشاعرها ورغباتها، وأنه إذا كنا ننادي بالمساواة بين الجنسين فلما نقف عند هذه المسألة ونرفضها، وباعتبار أن كثير من الشباب يصعب عليهم المباشرة بعلاقة ويحبذون فكرة أن تتقدم إحداهن و«تختصر عليهم الطريق» (حسبما عبّر أحد المستجوبون الشباب المؤيدون للفكرة) تُظهر عينة في مكان آخر تحفظها باعتبار أن التقاليد لا تسمح بذلك «تصور أن يقال بأن فلانة تقدمت لفلان وتزوجته، يا ضيعان الرجولة» كما علق أحدهم.

على ما تقدم نخلص إلى القول بأنه أيًا كان نمط الزواج أو نوعه أو توجهاته، فإنه لا يزال يعتبر في أوساط كثيرة شأنًا عائليًا أكثر منه فرديًا، أي لا زالت العائلة ترتبه وفق عاداتها وتقاليدها الموروثة لدرجة أن كثيرًا من الأهل يأنفون من لا يناسبهم في الدين أو الطبقة والنسب والبلد والمستوى التعليمي. ورغم تغير حاضر الزواج عن ماضيه بسبب ما طرأ من تغيرات خلال السنوات الأخيرة، لا زالت عملية ترتيب الزواج مرتبطة بعدد من الظواهر الاجتماعية مثل: الحد من حق الاختيار الفردي/ تفضيل زواج الأقارب. فقد لوحظ من المتابعات الميدانية أن هناك عوامل أخرى تلعب دورها قبل الحب، ويرجع السبب في ذلك على أن كثير من الزيجات في الوسط التقليدي المحافظ لازالت تتم بترتيب من ذوي العروسين لمصالح معينة (يحدث في بعض الثقافات اتفاق مسبق بين الأهل على تزويج أبنائهم وهم لا

زالوا صغارًا)، أو كأن يتم الزواج بالإكراه أو للمصلحة حيث تنعدم الروابط العاطفية فيه . .

وعلى هذا الأساس يأتي الحب ثانيًا بعد مقتضيات الواقع المعاش، ولعل نظرة على كثير من علاقات الحب نجدها قد انتهت لأنها اصطدمت بقيود اجتماعية أوجدها المجتمع قبل «الحبيين» ومن هذه القيود: الاختلاف الديني (وقد رأينا عينة من الإجابات) التمايز الطبقي، التباين المناطقي والعلمي. حيث يقدر لهذه العوامل أن تحول دون تكريس العلاقة برباط مقدس، لهذا يرغب شباب اليوم في أن يسير بعلاقات متعددة مع فتيات مختلفات دون أن يرتبط ـ فعليًا ـ بعلاقة عاطفية ثابتة، بل إن منهم من يفضل البقاء على علاقة طويلة الأمد من أن يرتبط فورًا لبناء أسرة، وهذا يعني أن الحب الرومنطيقي لم يعد ضروريًا للزواج، بل إن مقتضيات الواقع وليست المشاعر والأحلام الوردية هي التي تفرض الزواج (لهذا السبب نلاحظ انتشار حالات زواج مختلفة كزواج شاب من سيدة متقدمة عنه في العمر حيث هي متيسرة ماليًا بخلافه، وارتباط الشباب العربي بفتيات أجنبيات بهدف الحصول على تأشيرة دخول إلى بلد أجنبي للحصول على جنسية، وزواج الإنترنت حيث البحث عن شريك/ شريكة المستقبل في المواقع الإلكترونية متاحًا كحصولك على خدمة إنتاج، وزواج المكاتب الذي تتولاه جمعيات خيرية بهدف الحد من تكاثر ظاهرة العنوسة)، ورغم أهمية غاية هذا الزواج إلا أن مبرراته أبعد من ذلك حيث الروابط الاجتماعية انعدمت لدرجة يصعب على الشريك إيجاد شريكة حياته بسهولة لانشغاله الدائم، أو لعدم وجود من يهتم لأمره في هذا الموضوع فليجأ إلى مكاتب متخصصة وتقديم «طلب زواج».

المحور الثالث: آراء اجتماعية عامة:

يواجه الشباب كثيرًا من صور الحراك الاجتماعي حتى يصبح إنسانًا اجتماعيًا، فهو ينتقل من حالة الاعتماد على الغير إلى حالة الاستقلال النسبي، من مرحلة التعليم إلى مرحلة سوق العمل، من المنزل إلى البيئة الخارجية (بعيدًا عن المنزل) وكذلك من العيش في ظل أسرة إلى تكوين أسرة خاصة به،

إنه في حركة طموح دائم قوامه الرغبة في تحقيق الذات وإثبات القدرة على تحمل المسؤولية. إزاء صورة الواقع الماثل في عالم الشباب من حراك وطموح وتطلع توجهنا إلى المستجوبين بأسئلة عامة بغية معرفة آرائهم فيما يتعلق بهم تجاه مجتمعهم منها:

1) ما هي أبرز اهتمامات شباب اليوم برأيك ...؟.....؟

2) ما هي أبرز مشاكل الجنس الآخر اليوم برأيك: .....؟

3) من المسؤول عن هذه المشاكل .....؟

4) ما هي المشكلة الأهم التي تقلقك أكثر من غيرها .....؟

5) إلى ما تطمح من أهداف في الحياة .....؟

6) كيف تنظر إلى مستقبلك .....؟

*** تطلع مشوب بالقلق:**

بالتوقف عند الاهتمامات ظهر تباين ملحوظ بين الجنسين ففي الوقت الذي اعتبر فيه الشباب أن أبرز اهتماماتهم منصبة الآن على: نيل الإجازة والحصول على شهادة والسعي نحو العمل والمال والشهرة ولو بالهجرة لتأمين مستقبله وتكوين أسرة خاصة، أشار الجنس الآخر بأن اهتمام الفتيات اليوم يدور حول عالم الموضة والبرستيج الاجتماعي والأناقة والتسلية عبر الإنترنت والسهر والخروج لقضاء أوقات ممتعة.

أما فيما يتعلق بالمشكلات التي تؤرق كل من الشباب والبنات، فهي متعددة لتنوع وجهات النظر، فالشباب يعتبرون مشاكل البنات تتلخص في: الغرور والكبرياء والعناد/ الانفعال الزائد وقلة الوعي وعدم فهم الآخر/ حب الظهور والغيرة والأنانية وعدم الثقة بالنفس / عدم الصراحة والاحتيال/ الغواية وحب المال/ تقيدهن بأعراف واهية والخوف من عدم الزواج. أما البنات فهن يجدن مشاكل الشباب في: تفكيرهم الدائم بالجنس/ اللامبالاة وعدم الجدية وعدم النضوج والاستهتار/ الإدمان/ عدم الإخلاص/ التهور والعنف والتعصب / عدم قدرته على تأمين حياته وتأسيس أسرة وقد اعتبر كليهما أن هناك أكثر من

طرف هو المسؤول عن هذه المشكلات، فقد أرجع من نسبتهم 58% السبب إلى الأهل، فالدولة (بما تمثل من أجهزة ومؤسسات) تاليًا 42%، فالوضع الاقتصادي ـ ثالثًا ـ برأي من نسبتهم 32%، يليه وسائل الإعلام 22%، فقلة الإيمان 16% فالشباب أنفسهم 18%. .هذا فضلًا عن أسباب أخرى مثل (الفقر/ التمثل بالغرب/ العادات / الصحة السيئة / . .).

وعن أبرز المشاكل التي يمكن أن يمر بها الشباب عمدنا إلى مقاربة الموضوع بسؤال المستجوب عن المشكلة الأهم التي تقلقه فكانت إجابات متعددة:

* **ما يقلق الشباب:** عدم إيجاد عمل بعد التخرج/ عدم تحقيق طموحه/ عدم استقرار الأوضاع السياسية/ تدخل الأهل/ وصوله إلى المكان الخطأ بعد جهد جهيد/ غضب اللّه/ عدم تأمين حياة أسرية كريمة/ وغير ذلك.
* **ما يقلق الفتيات:** الزواج من شخص غير مناسب / الوقوع في الخطأ / انعدام الصدق وعدم الصراحة / فعل الحرام والفساد/ فقد عزيز / الخيانة / عدم القدرة على تأمين مستوى معيشي لائق/ الحرب / الوحدة / الفلتان الأمني والأخلاقي ووضع البلد المضطرب/ . . . . . .

يلاحظ هنا أن ما يقلق الشباب يتعلق بمسائل مهنية أكثر منها نفسية واجتماعية التي تبرز بدورها بشكل ملحوظ عند الفتيات، وسبب ذلك يعود إلى دور كل منهما في الحياة، فدور الشاب الدراسة ثم العمل وتأمين وظيفة مرموقة وحياة اجتماعية مستقرة، بينما الفتيات يقلقن من الوحدة وعدم الصدق واضطراب الأوضاع، ذلك أن في استطاعة الشباب عند اضطراب الأوضاع أن يهاجر أو يتنقل من مكان لآخر بحثًا عن الأمان والمستقبل العملي، بينما الفتيات لا يستطعن بسهولة المغامرة في الهجرة. وعلى رغم هذه المشاكل كيف يتطلعون إلى مستقبلهم أبتفاؤل أم بتشاؤم؟ وما هي أهدافهم في الحياة؟ عن ذلك أبرزت المعطيات النتائج التالية:

جدول رقم (3) توزع المستجوبين بحسب نظرتهم إلى المستقبل

الجنس	تفاؤل	تشاؤم	ما بين وبين	لا جواب
ذكور	%54	% 24	% 16	% 6
إناث	%68	% 16	% 12	% 4

النظرة الغالبة من كلا الجنسين هي إلى التفاؤل منها إلى التشاؤم، فنصف عينة الشباب (54%) وثلثي عينة الفتيات (68%) يتطلعون إلى مستقبل زاهر واعد ومشرق ومزدهر.. مما يعني أن أهدافهم في الحياة يجب أن يشوبها الأمل والتطلع لتحقيق الطموحات، ولكن هل هي فعلًا كذلك أم يشوبها إحباط وضبابية وغموض ويأس من عدم تحقيقها؟ عن ذلك أظهرت المعطيات المؤشرات التالية:

* من أهداف الشباب: الاستقرار العائلي / بناء أسرة / تأمين الشيخوخة / حياة كريمة / النجاح والشهرة / وظيفة مرموقة / السعادة / أن أحقق ذاتي / أن أكون مسؤولًا وجديرًا بالحياة.

* من أهداف الفتيات: العيش بسلام / الزواج السعيد / إنجاز علمي / تحقيق طموحي / العمل المشرف / التزام المبادئ وعدم الوقوع بالانحراف / السياحة / السفر / الرفاهية.

يقول (جالز فرنش): «**في سن الثامنة عشر يفكر المرء في إصلاح العالم، وفي سن الثلاثين يفكر في إصلاح وطنه، وفي الأربعين يفكر في إصلاح منطقته وفي الخمسين يفكر في إصلاح بلده أما في الستين فيفكر في إصلاح... نفسه**» إنه واقع التطلع الذي يبدأ مع الشباب فكلهم يرغب في تحقيق طموح أكبر من عالمه، فيُكثر من الأماني ويتصور الأمجاد التي يتمناه والأعمال التي يتوقعها والمستقبل المشرق الذي يرغب ببنائه، وهي مسألة بدهية ترافق تكوّن البعد النفسي لدى الشباب الذي يتمثل في: الرغبة في الحب

والمغامرة (التوتر الجنسي) تمثيل البطولة والتماهي بالرموز (الهوية) التأمل وأحلام اليقظة، توكيد الذات والاستقلالية.

*** الشباب و.....العيب:**

من العناصر الجوهرية في جميع الثقافات منظومة الأفكار التي تحدد ما هو مهم ومرغوب في المجتمع، وهذه الأفكار المجردة هي سلم القيم الذي يتعارف عليه الناس وفق ما يعرف بالعُرف الاجتماعي الذي يعمل على توجيه تفاعل البشر في تعاملهم وعلى تشكيل قواعد السلوك التي ينبغي أن يتصرف بها فرد ما في محيط معين .. ويحدث أن هذه المعايير تترسخ مع الوقت في الأذهان وتتجسد قيم وعادات وتقاليد في حياة الناس اليومية. وهكذا نجد أنفسنا ـ وحتى نكون لائقين اجتماعيًا ـ نسير وفق المتعارف عليه، ونغلّب كل قيمنا الأخلاقية ضمانًا لسلامة حياة الجماعة التي ننتمي إليها تجنبًا لأي فوضى، فهل يعي الشباب هذا الواقع من مراعاة «النظام الأخلاقي العام»؟ وهل الانحراف عنه لا زال يعتبر بنظرهم عيبًا؟ أين مفهوم العيب؟ في أيّة مسائل يتجلى بشكل صارخ؟ هل لا زال هذا التقليد الاجتماعي (القيم / المعايير/ .العيب .) معمولًا به؟ عن ذلك قدمنا للمستجوبين أسئلة هادفة منها:

1) هل برأيك مفهوم العيب لازال فاعلًا في أوساطنا الاجتماعية: نعم/ لا، (إذا لا) لماذا.....

2) أي الأمور تعتبرها الأكثر خروجًا عن عرفنا وتقاليدنا بالنسبة:

*** للفتيات:.....**

*** للشباب.....**

أن نطرح مثل هذه التساؤل لأن الشباب طاقة التغيير المثلى والثائر على كل تقليد بالٍ، ولا يأبه غالبًا بأعراف يعتبر الخروج عنها عيبًا، سيما وأن صور الضبط الاجتماعي غير الرسمي كالعرف والمعيار والخوف من العيب هي لازمة اجتماعية مهمة لمنع التفسخ الاجتماعي وظواهره كالانحراف والإجرام،

فهل لازال يؤخذ بشيء اسمه العيب؟ بالاستدلال البياني بينت المعطيات: أن أكثرية المستجوبين 66% من الذكور و68% من الإناث رأوا فاعلية واضحة لرهبة العيب مقابل 34% من الشباب و30% من الفتيات لا يرون تأثيرًا له. أي أن ثلثي العينة يقولون باعتبار العيب ووجوده الهام في الأوساط الاجتماعية فهو وبحسب التعريفات عنه: «منظومة متكاملة من المفاهيم الاجتماعية المتعلقة بسلوكيات البيئة التقليدية، ميزة هذه المنظومة أنها ترتدي قوة القانون، ومصدرًا للتشريع الاجتماعي غير المكتوب»، ولعل أبرز أنواع ما نطلق عليه العيب يتعلق بسلوك المرأة الشابة وسلوك الرجل الشاب، (و أحيانًا الأطفال عندما يقومون بأعمال غير لائقة) لهذا حرصنا على أن نعرف رأي كلا الجنسين عن أكثر المسائل التي تعتبر معيبة بنظرهما، وعليه طُلب من المستجوبين تحديد ما يعتبرونه معيبًا سواء فعلته الفتاة أو فعله الشباب (رأي الشباب بهم وبهن وكذلك رأي الفتيات بهن وبهم) لتتنوع الآراء في أكثر من سياق نعرض أبرزها:

- ✓ اعتبر 48% من الشباب أن من أكثر مواطن العيب بالنسبة للفتاة عندما تغادر منزلها مع شلة أصحاب لقضاء أيام بعيدًا عن الأهل.
- ✓ اعتبر 44% من الفتيات أن من أكثر الأمور المعيبة بحق بنات جنسها أن تعود متأخرة إلى بيتها ليلًا.
- ✓ 50% من الشباب رأوا من أكثر الأمور المعيبة بحق أنفسهم عندما يتمردون على آبائهم ويتركونهم وهم بحاجة إليهم، وكذلك رأت من نسبتهن 46% من الفتيات هذا المؤشر معيبًا إذا فعله الشباب.

يلاحظ أن أكثرية المستجوبين ركزوا على مسألة خروج الفتاة بعيدًا أو عودتها ليلًا على أنه أمرًا غير مستحبًا ورغم التبريرات التي قدمت حول هذا الخروج (دواعي العمل كممرضة في دوام ليلي أو نادلة في مطعم أو إعلامية في محطة تلفزيونية)، إلا أن الخط الأحمر بالنسبة للشباب عن الفتيات هو: **«أن تذهب بعيدًا عن المنزل لقضاء وقت ممتع مع شلة أصحاب»** فبرأي بعضهم نحن لسنا في أوروبا أو أمريكا حيث التساهل في هذه المسألة متاحًا إلى

أقصى حدوده، وأن يترك الشاب أهله برأي الفتيات دون الاهتمام بهما لهي مسألة مرفوضة، واللافت في معطيات هذا السؤال توافق رأي في بعض المسائل بين كلا الجنسين واختلاف رأي في مسائل أخرى، فهما (الشباب والإناث) اختلفا على مسألتي العودة متأخرة ليلًا، حيث أكثرية الفتيات (44%) يرفضنها دون أية ذريعة وخروج الفتاة بعيدًا عن المنزل لا يحبذه الشباب مطلقًا حيث بالنسبة ل 48 % هو الأكثر عيبًا، أما عن توافق كليهما فكان على مسألة «ترك الآباء» (50% و46%) حيث هي مستنكرة ليس أخلاقيًا وحسب وإنما اجتماعيًا ودينيًا. كذلك تبين من الإجابات مسائل أخرى اعتبرها الجنسين من الأمور المعيبة كقيام الشباب بأعمال مشبوهة من الاحتيال والنصب (بنظر 20% من الفتيات و16% من الشباب) وانتماء الفتاة إلى تنظيم حزبي (حيث 12% من الفتيات يرونه مستنكرًا)، ومن المعطيات أيضًا اعتبر بعض الشباب أن هناك مسائل أخرى معيبة وهي: مساكنة البنات لشباب دون رابط شرعي/ تفحّش الفتيات في اللباس غير المحتشم إلى درجة التعري/ الميوعة الزائدة عند بنات اليوم وخاصة الجامعيات. . .بينما رأت البنات عيب الشباب في ممارسة الجنس دون أية اعتبارات أخلاقية أو دينية، (وإن لم يمارس يفكر دائمًا في هذا الموضوع ولا ينظر إلى البنت إلا كجسد ومتعة جنس) أو أن يغير من أطباعه ويدخل عالم الصرعات ويصبح «شاذًا» أو أن يعمد إلى تغيير دينه.

هنا ثمة «ذهنية تقليدية» ضاربة عميقًا في داخل المستجوبين وتطفو إلى العلن عند إشارة اختبار لمواقف أو سلوك حين يتواجه بها أحدهم، مما يؤشر إلى أننا لازلنا نعيش مجتمعًا شرقي السمات، للعُرف فيه قوة صارخة، فالفتيات في المجتمع الإحصائي تتجنّب الذهاب بعيدًا خوفًا من «القيل والقال» واحترامًا لمكانتها وكي لا تلوث سمعتها بأقاويل هي بغنى عنها، والشباب كذلك يلازمون آباءهم لأن رضا الله من رضا الوالدين، وأي توفيق في حياتهم يتوقف عن مدى رضاهما عليهم، ومن يعقّهما لا يسلم من ألسنة الناس بالذم والتحقير، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن شبابنا لازال متأثرًا كثيرًا في بعض القيم العائلية.

خلاصة عامة:

عن العلاقة مع الجنس الآخر يبدو أن إجابات المستجوبين العفوية فضحت الكثير من الأفكار التي تختزن في داخلهم، وما هذه التعبيرات سوى مرآة للبنية الذهنية وتعبير عن ذات مجتمعية تشربت فيه وتمازجت مع ذاته الخاصة حتى صعب فصله، ما يمكن ملاحظته هو وقوع الشباب في ازدواجية تعبير، برزت معالمها في «أحادية نظرة» بناء على أحكام مسبقة و«ثنائية تصرف» في مواقفه وسلوكه (مع وضد في نفس الوقت). . أي هو في أفكاره منمّطًا على قديم بالٍ وتعصب فكري أعمى وفي الوقت ذاته متطلع نحو العصرنة ومعطياتها المعرفية الراقية. . .وترانا نتساءل:

- هل يعي الشباب اللبناني أن العصرنة والمدنية لا تعني فقط الأخذ بما تقدمه الحداثة من مبتكرات تقنية نستعملها في يومياتنا وإنما تعني أيضًا تطور فكر، وسلوك مهذب ووعي مجتمعي راق واستيعاب الآخر بسمات اختلافه؟.
- هل سيجرؤ على تمثل قيم الحداثة والتحضر أم أنه سيبقى أسير الأحكام المنمطة والمواقف الماثلة؟.
- هل سنعيد النظر في نظرتنا كشباب ـ للمرأة ـ من كونها موضوعًا جنسيًا وبأن رأسمالها هو جمالها، إلى اعتبارها إنسانًا مشاركًا وليس فقط مجرد دور (أم / زوجة / مدبرة)؟.
- هل سنعيد النظر كفتيات تجاه الشباب بأنهم ليسوا نسخة طبق الأصل عن أسياد الزمن الساحق، وعلى أنهم أوعية صبت فيها «مسموحات وممنوعات»؟.

في ظل عالم سريع التطور والتغير لا بد من أن يتغير الشباب نحو الإحساس بالمشاركة أكثر فيما يقرر مصيره الاجتماعي، وبالتمرد عن كل ما يهمش دوره كإنسان مشارك ومعطاء ومسؤول، لأن قيمًا جديدة أخذت تنبثق مع عصر العولمة وأخذت تفرض نفسها في المجتمع العربي، حيث بتنا نشهد مزيدًا من تحرر المرأة في تبعيتها للرجل مع إقبالها على العلم (ولو بعيدًا عن

الأهل) والعمل خارج المنزل (ولو اقتضى الأمر السفر لفرصة عمل مغرية) والمشاركة الاقتصادية والعمل السياسي . .ووفق هذا السياق بات يظهر للعيان بقدر ما تتعلم الفتاة (كأنثى) وتعمل وتنتج، تسهم في صنع مصيرها ومساواتها بالرجل أمرًا واقعًا وحقيقيًا . .وحتى يتحقق هذا الأمر، فإن المرأة في بعض أوساطنا الاجتماعية لا تزال «مغتربة» (بالمعنى السيكولوجي) تعاني من مشكلات أساسية ليس أقلها نظرة «الذكورة» التي تنصاع بدورها ـ هذه الأخيرة ـ حكمًا لأنساق اجتماعية هي بمثابة «التابوهات»، لأن الانصياع ـ في مفهومه ـ ما هو إلا نوع من الاستعداد لتقبل أشياء محددة ورفض أخرى، إنه «محصلة تجارب سابقة عديدة استخلص منها مسلكًا أعمق بكثير من العادة، مسلك يتجاوب مع الحياة اليومية والعملية بعقلانية الاختيار الشخصي الاجتماعي» وهذا ما يتصف بالجانب الاجتماعي لدى الشباب بمظاهر رئيسة في تآلفه مع الآخرين، حتى يؤثر ذلك على سلوكه ونشاطه وسعيه الدائم نحو توسيع آفاق الحياة ويقترب ـ فكرًا وسلوكًا ـ من معايير الناس ليكرس دوره المفترض. وفي المقابل قد نجد عندهم ـ اجتماعيًا ـ حالة من النفور الذي يظهر في صور تمرّد وسخرية على نظم مفروضة من السلطة القائمة. .كما يزداد تعصبه لآرائه متأثرًا في ذلك بأطر مرجعية تنشأ عن علاقته بالوالدين وبأنماط ثقافية ـ تربوية ممتدة من الشعائر الدينية التي يؤمن بها والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها وبالزعامات التي يوالي.

إن نظرتنا تجاه بعضنا بعضًا وتغيرها نحو استيعاب وفهم أعمق «للجندرة» لا يحدث إلا إذا حدث تحول في البنى الاجتماعية والنظام العام، التي لا زالت بدورها تعزز من علاقات السيطرة والاستغلال في مختلف مؤسسات المجتمع بما فيها العائلة والمدرسة والعمل، فهرمية العائلة جزء من هرمية المجتمع، فلا يتم تحرير المرأة مثلًا بمعزل عن تحرر المجتمع نفسه، أي هناك علاقة جدلية بين عمليتي التحرر ووجود المرأة ككائن منتج، بمزيد من الانفتاح الفكري وبأن يكون كلا الجنسين على قدر من الوعي والمسؤولية في الموقف والسلوك . .عندها تتغير النظرة وندخل عالم الجندرة بالتوصيف الذي أراده مطلقوه.

obeikandl.com

استطلاع رأي (3)
الأنا والآخر الطائفي: أيّة علاقة؟[1]

توطئة:

حين تتأمل في أحداث الواقع الراهن لبنانيًا، تستوقفك تساؤلات عدة عن مآل هذا الوطن، في أية خانة يُصنّف؟ هل هو مجتمع: متجانس أم مجتمع تعددي أم فسيفسائي؟ كيف يمكن أن ننظر إلى أبناء هذا المجتمع هل هم متنافرون، متعايشون، على حالة من التقارب أم النفور والابتعاد؟.

تدور التصورات السوسيولوجية عن العمليات الاجتماعية التي تتضمنها التفرقة الإثنية في عدة صور أبرزها: **التمركز الإثني وانغلاق الجماعة**، تشير الصورة الأولى إلى التوجس والشك تجاه الأجانب مقرونًا بالميل إلى تقييم ثقافة الآخر بمعايير ترتكز على ثقافة الجماعة الأولى نفسها، يشوبها في أحيان كثيرة «التفكير التنميطي» والنظر إلى الآخرين المختلفين باعتبارهم غرباء/ منحطين أخلاقيًا/ متخلفين... (ومثل هذا التصور أدى إلى مصادمات إثنية لا حصر لها عبر التاريخ) أما عن الصورة الثانية فهي تشير إلى محافظة الجماعة الإثنية على الحدود الفاصلة بينها وبين الآخرين ويجري تشكيل هذه الحدود عن طريق وسائل إقصائية تحدد وترسخ حواجز الفصل بين مجموعة إثنية وأخرى (كحظر التزاوج بين الجماعات المختلفة دينًا ومذهبًا مثلًا) وهكذا تأخذ كل جماعة إثنية بالحفاظ على «مسافة» دون أن تقوم إحداهما بمحاولة فرض سيطرتها على

(1) نُشر في صحيفة النهار اللبنانية، 14/ 4/ 2008.

الأخرى. وقد تتراوح العلاقة القائمة ـ في مواضع معينة ـ بين الانصهار والانفصال من خلال درجة ما تطمح إليه في علاقتها بالجماعات الإثنية الأخرى التي تعيش وإياها في نفس المجتمع السياسي .وفي التاريخ الحديث توجد أمثلة عديدة للحركات الاندماجية بين الجماعات الإثنية بحيث تؤدي إلى انبثاق وحدة متجانسة وكثيرة هي الدول التي تعتبر من الأمثلة لتلك المحاولات.

واذا ما أردنا أن نصف العلاقات القائمة بين الجماعات التي يتكون منها المجتمع فإننا يمكن أن نصنفها من حيث درجة انصهارها بحسب مجموعة من السياقات الاجتماعية وهي: النزاع، التعايش والانصهار، «ويمكن اعتبار لبنان مؤلفًا من عدة جماعات طائفية تشدد على هوياتها الخاصة على حساب الهوية اللبنانية وتتمتع فيه بعض الجماعات بامتيازات سياسية واقتصادية واجتماعية دون الجماعات الأخرى، أو على حسابها، وقد انبثق عن هذا الحال تمسك الجماعات المختلفة بهوياتها الخاصة بدل أن تتحرر منها، وبسبب هذا الواقع ظل المجتمع اللبناني مجتمعًا فسيفسائيًا يتراوح بين التعايش والنزاع»[1].

إزاء هذه الافتراضات أين الجماعات اللبنانية على كافة تلاوينها الطائفية اليوم؟ هل هي على شيء من التجانس أم على شيء من المراوحة بين التعايش والنزاع؟ هل عوامل التنافر هي السائدة أم عوامل الانسجام؟ أين مكامن الالتقاء وأين مواطن النفور، متى يقترب فعليًا اللبناني من الآخر الذي يختلف عنه دينًا ومتى يبتعد؟ للإجابة على هذه التساؤلات كان لابد من مقاربتها واقعيًا وفق تقنيات استطلاع وبحث، فوجدنا أنسبها «سلم المسافة الاجتماعية» الذي وضعه بوغارديس (BOGARDUS) لقياس المواقف (باعتبار أن الموقف يختلف عن الرأي لأنه يعكس مستوى أعمق للشخصية ويمثل حضورًا ذهنيًا أفعل في غالب الأحيان) في هذا القياس تطرح الأسئلة بشكل يتناسب وحياة الأشخاص المستجوبين، عندما نضعهم أمام جملة خيارات وعليهم تحديد موقع يناسبهم على سلم مُعدّ سابقًا.

ويرى بعض الباحثين في دراسات علم النفس الاجتماعي أهمية هذه

(1) د. حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1981.

التقنية في قياس المواقف المتعصّبة والوطنية و لقياس المسافات القائمة بين الأفراد أو الجماعات، بحيث يُظهر الخيار المشار إليه على السلم موقف الفرد الفعلي تجاه شخص آخر يختلف عنه بالعقيدة أو اللون أو العرق أو البلد. وقد افترض بوجاردس في ذلك سبعة استجابات متدرّجة على مقياس من سبع اختيارات تمثل العبارة الأولى (الزواج) أقصى درجات التقارب الاجتماعي والعبارة السابعة (الاستبعاد) تمثل أقصى درجات التباعد الاجتماعي وبينها خيارات تؤشر لمواقف ممكنة مثل الصداقة/ الزمالة/ المصلحة/ المواطنة.

*** المقاربة الميدانية:**

تمت المقاربة على مرحلتين زمنيتين (2002/ 2007)، بحيث استطلعت مجموعة من طالبات قسم الإشراف الصحي ـ الاجتماعي (الجامعة اللبنانية) رأي أبناء الطوائف اللبنانية المختلفة، وقد اختيرت **محافظة البقاع** كواحدة من المناطق اللبنانية الغنية في التنوع الطائفي/ المذهبي (موارنة/ سُنّة/ دروز/ شيعة/ أرثوذكس / كاثوليك) وضمن كل مذهب استُجوبت فئات مختلفة عمرًا وجنسًا وتخصصًا وعلمًا ومهنةً ومنطقةً (البقاع الغربي / راشيا/ الهرمل/ بعلبك/ زحلة/ البقاع الأوسط) وكان على المستجوبين أن يحددوا خيارًا واحدًا على المقياس الاجتماعي المقدم عبر سؤال رئيس يشتمل على قائمة محددة تدرّجت خياراتها على سبعة مواقف، يمثل الرقم (1) أكثرها «قربًا» من الآخر والرقم (7) أكثرها «بعدًا» وفق التالي:

أولًا: حدد موقفك اتجاه الآخر الطائفي بخيار واحد فقط من الخيارات المدرجة:

1) أقبل الزواج منه.

2) أقبل صداقته.

3) أقبله جارًا لي.

4) أقبل أن أتشارك وإياه زمالة أو العمل.

5) أقبل أن أتعاون وإياه.

6) أقبله واحدًا من المواطنين في محيطي.

7) أقبل استبعاده من المحيط/ الوسط الذي أعيش فيه.

*** في معطيات الاستطلاع الأول (2002).**

أظهر الواقع الميداني اختلافًا في الاختيارات تمثلت أكثرها إيجابية مع مواقف المرونة الاجتماعية وأقلها سلبية في مواقف التصلب الاجتماعي، فالمرونة (التقارب أو التماثل) بدت واضحة في أكثر من مكان بمؤشرات عديدة مع عبارات: الزواج، الصداقة الحميمة، الزمالة القوية في العمل، الصحبة في الجامعة، إلخ. أما درجات التصلب الاجتماعي فقدت بدت في مواضع: التجنب والابتعاد لعدم الانسجام، رفض وجوده في المحيط المجاور، عدم التعاون... كما هو مبين في الجدول التالي:

المعطى / الخيار.	مقياس العلاقة عند المسلم.	مقياس العلاقة عند المسيحي.
1) الزواج.	28%.	8%.
2) الصداقة.	48%.	42%.
3) الجيرة.	2%.	4%.
4) الزمالة.	16%.	32%.
5) المصلحة.	2%.	4%.
6) المواطنة.	4%.	10%.
7) الاستبعاد.	صفر %.	صفر%.

في قراءة أولية لنتائج هذه المعطيات يتبين أن الذين اختاروا من 1 إلى 3 (ونسبتهم 78 % عند المسلمين 54% عند المسيحيين) يرجع إلى ما يتمتعون به من عوامل مثل: القدرة على الاندماج، التفهم، تقدير مشاعر وأفكار الآخرين، التي تعتبر بدورها من الشروط اللازمة لإقامة علاقة اجتماعية ناجحة تتسم بالمودة والتدعيم المتبادل نتيجة الإدراك الصحيح لرغبات الآخر من خلال مجالات لاحظها فريق العمل تتجلى في مواقف أأرزها: معدل مرتفع للاتصال اليومي بين الأنا والآخر، الحفاظ على مسافة مناسبة من الاحترام لإبقاء العلاقات في مسارها الودود والرغبة في معرفة كل منهما عن الآخر

معلومات تتعلق به (كرقم هاتفه/ عنوانه/ يوم ميلاده/ أفراد عائلته/ عاداته تقاليده/ مناسباته) أو معرفة هواياته وتفضيلاته وخصاله الخاصة (الأشياء التي تسعده أو تضايقه كي تكون محطة تقرّب وإهداء).

هذه المجالات/ الدلالات من شأنها أن تحدد مهارات اجتماعية متنوعة: كالمشاركة (SOCIAL PARTICIPATION)، التعاون (COOPERATION) المساندة (VALIDATION)، وإظهار الاهتمام متى حضر والسؤال عنه متى افتقد. أما عن الذين اختاروا من 4 إلى 6 (ونسبتهم 22 % عند المسلمين و 46% عند المسيحيين) فيمكن تبرير اختيارات هذه الفئة وفق مسألة «التماثل» عملًا بمبدأ: المثيل يجذب المثيل، أي أن من المستجوبين من يفضّل أصدقائه/ علاقاته من جماعته القريبة (المثيلة) فكرًا ومعتقدًا ومنطقةً، ويحدد تواصله مع الآخرين بناءً على الرموز الطقسية الخاصة بكليهما عبر أكثر من إشارة يعمد إليها بعضهم فيما لو دخل وسطًا متنوعًا من الناس كيف يحاول أن يبين هويته الطائفية[1]، هذا ما تحاول أن تفسره «نظرية العلاقات الأساسية بين الأشخاص (شويتز/ 1955)» التي تقول بأن الناس يتجهون بأنفسهم نحو الآخرين من خلال دوافع تعتبر بمثابة المحددات الأساسية للسلوك بينهم، ويمكن تحديد هذه الدوافع في ثلاث مفاهيم هي:

1. الاحتواء عبر الحاجة للارتباط بالآخر والتواجد معه، وتتضح هذه الحاجة غالبًا عند قيام الشخص باهتمامات محببة للآخر كي يجذب انتباه

(1) لاحظت مثلًا أن الطالبات المسيحيات في الوسط الجامعي يرتدين سلسلةً ذهبيةً تحمل صليبًا أو أيقونة معينة (وفي فترة الصوم يرسمن صليبًا على جبينهن) والفتيات الشيعيات يميزهن حجابهن وخمارهن الطويل، ولكن حتى في شكل الحجاب الذي يرتدينه هناك أكثر من دلالة وفقًا للمرجع المقلد (وأثناء أيام عاشوراء الجميع في لباس أسود موحّد)، وبالمثل يلاحظ عند الفتيات السنيات في طريقة ارتدائهن للحجاب والزي الشرعي كيف يختلف تبعًا للاتجاه (سلفي/ حبشي/ خليجي) أما بالنسبة للشباب فلهم في الرموز الطائفية لغة تواصل وتعريف أيضًا، فالمسيحيون منهم يلبسون على معصمهم سوارًا جلديًا فيه صليبًا خشبيًا، والشيعيون يوشمون على ساعدهم السيف ذي الرأسين (باعتباره ذو الفقار ـ سيف الإمام علي) أما ممن ينتمون إلى المذهب التوحيدي الدرزي فجل بعضهم يرتدي سلسلةً فيها نجمة ملونة بخمسة ألوان في إشارة للحدود الخمس التي ترمز للعلماء الذين أسسوا هذا المذهب.

ويستحوذ تقديره، (لهذا نلاحظ أن كل من أراد إقامة علاقة مع آخر مختلف كيف يكون ودودًا/ منفتحًا/ لطيفًا/ صديقًا، يحترم ما لديه كي يحوز مكانة أكبر في جمهوره.).

2. التوجيه، أي عندما تكون لدى طرف رغبة في توجيه الآخر وضبطه وفق ما يريد، تكون لدى الطرف الآخر رغبة في توجيه وضبط من يقابلهم أيضًا، والشخص الذي تكون لدية حاجة عالية للتواصل مع الآخر عليه أن يكون منضبطًا في تصرفاته / كلامه/ كي لا يُواجَه بالاعتراض والرفض.

3. التعاطف، ويقصد به مشاعر الحب والكراهية، مدى الانسجام والتجاذب، عوامل التقرب والنفور، إذ على ضوئها يمكن التنبؤ بوتيرة العلاقات القائمة بين الأقرناء والأفرقاء، على اختلاف سماتهم. فالشخص الذي تكون لديه حاجة قوية من العاطفة مع الآخر يصادقه، ويحاول أن يقيم معه روابط انفعالية قوية، أما من تكون لديه حاجة منخفضة فإنه يتجنب إقامة علاقة قوية.

*** في معطيات الاستطلاع الثاني (2007).**

خلال السنوات الثلاث الأخيرة شهد لبنان أحداثًا سياسية وأمنية خطيرة، كانت مفصلية في مسار حياة أبنائه، انعكست على بُناهم الذهنية والاجتماعية، حتى برزت على ضوئها نتوءات حادة في مسار العلاقات القائمة بين أبناء هذا البلد الواحد، انفرز الجميع في كتل وتيارات سواء ضمن الطائفة الواحدة تجاه الطائفة الأخرى، أو سواء بخليط عدة مذاهب في توجه سياسي واحد إزاء خليط آخر له اهتماماته وتوجهاته المختلفة.

إزاء هذا الواقع المستجد كان افتراضنا حول المسافة الاجتماعية الموجودة في ظل هذا التغير الحياتي المتوتر بعد مرحلة استقرار، هل لا زالت العلاقات ثابتة على انسجام أم حدثت تبدلات؟ إلى أي مدى اختلفت المسافات بين ذوي المذاهب المتعددة؟ هل لا زالت موجودة أم أنها تغيرت؟. وفيما لو تغيرت في أي سياق تغيرت؟ هذا ما دفعنا إلى إعادة إجراء الاستطلاع في المكان ذاته ومع عينة متشابهة لنرصد مدى التغير الذي حصل على مقياس العلاقة السابقة.. وباستخدام التقنية ذاتها تحصلت لدينا المعطيات

الإحصائية التالية:

المعطى / الخيار.	مقياس العلاقة عند المسلم.	مقياس العلاقة عند المسيحي.
1) الزواج.	20%.	12%.
2) الصداقة.	40%.	30%.
3) الجيرة.	6%.	12%.
4) الزمالة.	16%.	20%.
5) المصلحة.	6%.	6%.
6) المواطنة.	4%.	10%.
7) الاستبعاد.	8%.	10%.

في هذا الجدول نلاحظ اختيارًا للخيارات السبعة عند مختلف الفئات بنسب متقاربة إلى حد ما، حيث احتل مؤشر الصداقة أعلى نسبة اختيار لكلا الطائفتين، يليها عامل الزمالة فالزواج. .أما المصلحة والمواطنة والاستبعاد جاءت تاليًا في الجهة المقابلة عند شريحة من الناس في كلا الطائفتين. وقد لاحظ فريق العمل خلال الاستجواب ملاحظات هامة أبرزها:

✓ إشارة البعض إلى أهمية التنوع الطائفي كميزة عريقة في لبنان شرط أن تبقى في إطار المسالمة والاحترام المتبادل.

✓ رغبة بعض البنات المسلمات منهن والمسيحيات الزواج خارج إطار الطائفة والمذهب تمردًا على الحواجز التقليدية القائمة (فالحب يجب أن يتغلّب على التفرقة كما علقت إحدى المستجوبات).

✓ أهمية أن يتعرف كل صاحب مذهب على ما لدى الآخر من مقومات روحية سامية، فهذا بدوره يهيئ إلى مناخ الانفتاح والتقبل.

✓ ردد كثيرون عبارة: تعامل مع الآخر كما تحب أن تُعامل، كقاعدة سليمة للتواصل الأمثل بين الطوائف.

✓ اعتبار البعض بأن «الطائفية» وباءٌ يصيب أفراد المجتمع اللبناني بين الحين والآخر وخاصة في الوسط الجامعي بين الشباب، لذا يجب العمل على الحد منه.

obeikandl.com

يتبين هنا وجهة التفاعل القائمة بين الطائفتين، حيث التباين الإثني - وإن بدا متماثلًا في نسب بعض الخيارات - بين الجماعتين، فكل جماعة تضفي على هذا التباين أهمية قصوى وترتب عليه مواقف وأنماطًا من المعتقدات والسلوك المتبادل عبر ما يسمى بالتشريط الحضاري (culture conditioning) أي الضغوط النفسية والاجتماعية والثقافية الممارسة على أفراد الجماعة الإثنية، كما في **مسألتي الزواج والاستبعاد** (طرفي المقياس)، فالزواج هو مفضّلًا أكثر داخل الجماعة الإثنية المصغرة (المذهب). وإذا ساور الفرد فكرة التزاوج من خارجها فإن علامات التعجب تأخذ بالظهور عبر الاستهجان والاستغراب وصولًا إلى العزل من الجماعة الأصل. أما الاستبعاد فمرده إلى شيوع مواقف «التحيّز» التي تتمثل في تغليب ثقافة معينة أو منظومة من القيم مع النظر بازدراء إلى ثقافة أو قيم تتبناها شرائح أخرى.

*** عن المقارنة بين الاستطلاعين:**

بمقارنة المعطيات المتوفرة زمنيًا (والواردة في الجدولين) يتبين لنا فارقًا ملحوظًا في بعض الاتجاهات والمواقف نختصرها في التالي:

1) تراجع نسبة المفضلين للزواج عند المسلمين من المذاهب الأخرى وتقدمها بشكل بسيط عند المسيحيين.
2) ثبات مؤشر الصداقة عند كلا الطائفتين وإن زادت نسبته إنما بقي على مساره.
3) تقدم ملحوظ في اختيار عامل الجيرة من كلا الطائفتين على حد سواء.
4) ثبات في مسألة الزمالة عند كلا الطرفين.
5) تقدّم بيّن على صعيد علاقات المصلحة.
6) ثبات في مؤشر المواطنة.
7) تغير ملحوظ في مسألة الاستبعاد، ففي الوقت الذي لم يختاره أحد في استطلاع 2002 لُوحظ بروزه في استطلاع 2007 لدى كلا الطرفين

بنسب متقاربة.

وعليه يبدو أن هناك ثلاث اتجاهات ومواقف قدمتها نتائج الاستطلاعين هي:

☆ ارتفاع مؤشر الصداقة ومبرر هذه الزيادة في نسبته يمكن إرجاعه إلى اعتبار هذا الموقف أخف الخيارات جدلًا مما لو اختار المرء مؤشرات أخرى. لهذا كان يلجأ أكثر المستجوبين إليه باعتباره أكثر إعفاءً للحرج، بل إن بعضهم اعتبر أنه من خلال الصداقة يمكن أن ينتقل المرء إما إلى الزواج (بحيث تتطور العلاقة بعد التواصل الحميمي) أو يمكن أن تستدعي تقربًا في السكن والجيرة. .لذا لتكن هي البداية!.

☆ ثبات النسب في مؤشري الزمالة والمصلحة عند شريحة معينة من الناس التي تعتبر أن ما يربطها بالآخر هو مجرد زمالة. (دراسة أو عمل أو نشاط تجاري أو خدماتي). لا أكثر ولا أقل. أي هناك نوعًا من القبول الظاهري الذي يبدو في المجاملات وحكم الضرورة.

☆ بروز ملحوظ لمؤشر الاستبعاد، فبعدما كان هناك انعدام لاختياره في الاستطلاع الأول (حيث لم يحدده أحد من المستجوبين) استحوذ نسبة معينة لدى شريحة من المستجوبين، وهذا إن دل على شيء إنما يدّل على التبدل الحاصل في وقائع الحياة اليومية التي أخذت تشكل معالمها رويدًا رويدًا نتيجة الأحداث السياسية الحاصلة بعد الاستطلاع الأول من أحداث أمنية عصية / اغتيالات سياسية/ خطاب سياسي متشنج/ إعلام متحيز، كل ذلك ألقى بظلاله على ذهنية الناس وتصوراتهم ومواقفهم، لدرجة بات استبعاد الآخر مطلوبًا، أو أمُنية لو تتحقق، وكأن هناك انغلاق على الأنا الجماعية وتوجسها من الآخر الطائفي.. والسعي نحو منافذ الخروج من هذا التوجس إما بالرحيل التلقائي (السفر والاغتراب) أو التحصّن داخل قوقعة الانتماء المناطقي/ الديني (الاحتماء بزعيم منها/ تغيير مكان السكن/ ترك عمل بين أناس ليسوا من ملته إلى آخر)

وإما رفض الآخر والنفور منه وعدم التعامل معه وتجنبه لدرجة استبعاده من الوسط الذي يعيش فيه كي لا يتواجه وإياه.

وعندما تأخذ كل طائفة بالتكتل على خوف، متوجسةً من الآخر شرًا، تدخل عندها في مآسي توازن الرعب الطائفي. يحاول كل منهما أن يصارع الآخر في مد وجزر الإلغاء، فتكون النتيجة تغير ديموغرافي ونفسي وثقافي خطير، لأن «أيديولوجيا التخاصم التي تميز الحروب هي منظومة فكرية تقوم على صورة جوهرية هي صورة النحن لا على صورة الكل، النحن تعني جماعة دينية أو إثنية محددة أو عصبية قبلية، النحن تعني جماعتنا، كتلتنا، وفي النحن لا مجال للآخر وطالما لا مجال للآخر فكيف بالتالي أن يكون مجال للكل، فالكل هو مجال الدولة، جميع المواطنين أما النحن فهي مجال القبلية / الجماعة/ الحزب المغلق/ الطائفة والإثنية..»[1].

في الاستنتاجات:

إذا كانت العلاقات الاجتماعية الموزونة تقوم على تماثل الاتجاهات بصفة خاصة وتحمل دلالات بالغة الأهمية تمس توافق الفرد واستقرار الجماعة لما تتسم به من تجانس في الاهتمامات والتفضيلات والقيم والظروف الاجتماعية فإن هذه الدراسة قدمت دلالة اجتماعية على استقرار العلاقات بين الأنا والآخر على مستوى الصداقة لدى غالبية المستجوبين، إلا أن ذلك لا يمنعنا من التغاضي عن الاستنتاج بأنه في مكان ما يلاحظ درجات تصلب مختلفة كانت تتجلى إما بشكل سلبي واضح عبر صور: التصادم، السباب، الاحتقار، الاستهزاء، اللااعتبار(كأشد درجات التصلب) وإما بشكل غير ودي عبر: الابتعاد، التجنب، عدم التعامل (كأخف درجات التصلب) وكأن هناك صورتين تتمثل:

أولهما في «SOCIAL MOBILITY» أي برغبة الالتقاء والارتقاء على

(1) د. فردريك معتوق: جذور الحرب الأهلية، دار الطليعة، بيروت 1994.

نوازع العنف والشر وقد عبر عنها المستجوبون في أكثر من مجال عنها بقولهم ووصفهم للآخر الطائفي: بأنه إنسان مثلي مثله/ نحن أبناء بلد واحد/ أحترمه وأحبه كأخ لي / كلنا مثل بعض/ لا يوجد هناك «آخر» ـ برأي إحدى المستجوبات ـ لأننا بالنهاية نحن ننتمي لوطن واحد ولا تفرقة بيننا/ هناك تشابه في كثير من الأمور.

وثانيهما في «SOCIAL RIGIDITY» أي برغبة البعد والتجنب وتحاشي التواصل مع أبناء المذاهب الأخرى، بل ذهب بعضهم أبعد من ذلك عندما شطح في توصيف من يختلف عنه مذهبًا ودينًا بأنه: لئيم/ متعصب/ إرهابي.

مما يؤكد لنا كيف أن اللبناني ينمو ضمن نماذج اجتماعية تتسم بوجهين متكاملين: توجّه نحو الانسجام مع المقاييس السائدة بحكم التطور والانفتاح والحداثة، وتوجه آخر نحو التمايز بخاصية الإثنية (ethnic) تدمغه بطابعها الخاص فيحدد لنفسه معنى من خلالها قوامه مناخ نفسي وذهني وتراثي خاص. وهذا ما يعرف بالسمات الإرثية (ascriptive traits) التي تنميها الجماعة الإثنية في أفرادها مبكرًا كجزء من عمليات التنشئة وكضرورة للحفاظ على الكيان الجمعي، ولتكريس مصالح ومزايا مكتسبة، كما أن الآخرين يفعلون بدورهم الشيء ذاته لنفس الاعتبارات لأن وجود الآخر المختلف أهم عامل في تنمية وعي إدراكي للإثنية. وبذلك تنطوي العلاقة الإثنية صراحة أو ضمنًا على آليات نفسية واجتماعية وذهنية للاندماج والاستبعاد قوامها شروط يكون فيها المرء إما من جماعة «النحن» وإما من جماعة «الهُم».

لأجل ذلك لا بد من إيجاد خصائص علاقات الأنا والآخر في السياقات الاجتماعية عبر تعزيز مهارات التفاعل الاجتماعي والارتقاء المعرفي والانفتاح الحضاري، وإبراز مجالات التقارب وصولًا نحو التماثل في درجات المرونة الاجتماعية كي لا نبقى أسرى ذهنية التصلب والأفكار المنمطة، لتحل عبارة «إننا» بدل عبارة نحن أو الأنا المغلقة، لأن مفتاح السياقات الأيديولوجية في تشكيلية اجتماعية ترغب في التغير نحو الأفضل موجود في «العلاقة مع الغير»، في تغيير الصورة القائمة: اتجاه من الوطن إلى الطائفة (حيث التفسخ) نحو

الأخرى الأكثر مطلبًا: اتجاه من الجماعات نحو المجتمع (حيث التوحد)، قبل أن يصبح لبنان ـ والذي يعتبر اجتماعيًا بلدة واحدة ـ رسم المسافات بين مناطقه وطوائفه سهلًا للغاية.

obeikandl.com

استطلاع رأي (4)
السلوك الجماعي في ظاهرة التظاهر[1]

(قراءة سوسيولوجية ومقاربة ميدانية)

مدخل:

بماذا يمكن وصف السلوك الجماعي المحتشد؟ ما هي الأسباب الموجبة لكل تحرك؟ أين يندفع المتظاهرون وأين يخفتون؟ هل الاحتجاجات الشعبية هي فعلًا وسيلة تغيير أم مجرد تحرك للتأييد؟ وهل كل تحرك متظاهر يوصل إلى نتيجة؟ كيف يمكن وصف «ظاهرة التعبير الشارعي» هل هي فعلًا مظهر ديموقراطي، كما يقال، أم أنها فوضى يثيرها الرافضون؟ هل يمكن اعتبار التظاهرة وسيلة تعبير مرتجلة لإيصال رسالة ما؟ إن كان ذاك، كيف؟ بتعبير أدق، ما هي دلالات ظاهرة التظاهر؟ كيف يمكن رصد أبعادها النفسية والاجتماعية والفكرية؟ مجمل هذه الأسئلة حاولت الإجابة عليها عبر الأطر النظرية المتمثلة مما يراه علماء النفس والإعلام والاجتماع حول «السلوك الجماهيري»، ثم مقاربة هذا الموضوع/ الظاهرة على ضوء عينة من آراء اللبنانيين خلال فترات التظاهر التي حدثت في بيروت.

أولًا: السلوك الجماعي والتظاهر: جمهور نفسي.

على الرغم من زخم التظاهر الظاهر في مختلف الشوارع العربية والأوروبية، و ليس فقط لبنانيًا، تبقى هذه الظاهرة في مدلولاتها الشائعة من أكثر الظاهرات غموضًا، ذلك لأن طبيعة السلوك الجموعي، يمكن فهمه من

(1) نُشر في صحيفة النهار اللبنانية: 8/ 4/ 2005.

خلال درس تجمعات متنوعة مثل الحشد، الرعاع، التدافع، السلوك الشمولي، الرأي العام، الحركات الاجتماعية، الثورات الإصلاحية، التحرك النقابي، وغيرها مما يصعب معه فهم طبيعة هذه الجمهرة كونها تنطلق من «تلاوين» متعددة لها أسبابها ونتائجها الشتى. لكن القاسم المشترك بين كل هذه المدلولات يرتكز على القول بخاصية العدد الكبير الذي يتميز به «حشد التظاهر» فمثل هذه الاعتبار يلعب دورًا تأسيسيًا في تحديد معالمه، لهذا نجد كيف أن منظميه يحرصون دائمًا على توسيع الدعوة إليه، والحث على المشاركة، لما يوحيه «العدد» من فعل تأييد لما يطرح. لكن هذا الاعتبار غير كافٍ للتفسير أساسًا وجوهرًا لمعنى التظاهر وأهميته، لأنّا إذا أردنا التوصل إلى وصف حقيقي للكتلة الجماعية باعتبارها فريقًا ـ أي جزءًا مساهمًا وفعالًا في عمليات التعبير ـ وجب علينا أن ننظر إليها كجمهور أو كتلة تتألف من أناس يشترك أفرادها في ظهور/ لقاء/ أو نقاش عفوي حول إحدى القضايا العامة ـ يندفعون غالبًا ـ من شعور مشترك، لينتهوا إلى قرارات جماعية وآراء مشتركة.

لهذا فإن ألفًا أو مائة ألف يتواجدون بالصدفة في ساحة لا معنى لتجمعهم أو عددهم إن لم يكن لديهم توجهًا واضحًا، في حين أن بضعة مئات ـ على سبيل المقارنة ـ من عناصر متحركة لها هدف وتنطلق وفق خطة مطلبية يمكن اعتبار تحركها ذات جدوى. باعتبار أن خاصية العدد لا يفرضه سلوك التجمع بقدر ما يفرضه فعل الإيمان بجدوى الاحتشاد/ التظاهر. وهنا يصبح هذا التكتل البشري «الهادف» ممتلكًا خصائص جديدة مختلفة جدًا عن خصائص كل فرد يشكله إذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، فتتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة لكنها تتمتع بخصائص محددة، لتصبح والحالة هذه ما يمكن تسميته بالجمهور النفسي له كينونته ووحدته العقلية المشتركة. بهذا السياق يمكن النظر إلى جمهور التظاهر فأيًا كانت هويتهم أو مهنتهم أو جنسهم وأيًا كانت المصادفة التي جمعتهم، فإنهم ينصهرون في بوتقة «التركيب» أو بصورة أدق في الفاعلية التي تحرك الجماعة ككل مما يجعلها وحدة خاصة بها. تنشئ من يمثلها ومن يفسر اتجاهاتها ومن ينطق باسمها،

وعندما يتمكن هؤلاء من مس وإثارة عواطف أفراد الجماعة بشكل عميق في التأثير الدعائي، لا يغدو المضمون المستوعب مادة للتفكير وحسب، وإنما مصدرًا للهيجان والاضطراب وقوة دافعة نحو رغبات وطموحات جديدة. ومثل هذه الإثارة الانفعالية جماهيريًا غالبًا ما تشق الطريق نحو واقع الجماعة المرتقب.

إن التقاء اختيارات الناس هو ما يجعل من «ظاهرة التظاهر» قوة ذات تأثير، خاصة في الظروف المثيرة التي ترتفع فيها قابلية التأثر بالنداءات الحماسية التي تعمل على تهييج جماهير متنوعة ومتعددة وتحركها إلى أبعد حدٍّ.

ثانيًا ـ التظاهر والشعارات: إعلام مباشر.

وبالنظر إلى التظاهر على أنه حشد بشري يتلاقى ويتكثف، إلا أن ما يتمم هذا الحشد ويختصر توجهاته في آنٍ هو الشعارات التي ترفع سواء كانت مكتوبة أو منطوقة أو مرمزة، كثيرة هي التعابير التي يستخدمها المتظاهرون في تحركهم، لأن التظاهر وفي أحد وجوهه هو «تجسّد الذات الجماعية المقهورة» وانعتاقها نحو منافذ تنفيس، ليتوج هذا التنفيس بوسائل متنوعة أبرزها الشعارات الظاهرة في «اليافطات» التي ترفع، والصرخات التي تطلق وهنا ثمة دلالة وتنوع في طبيعة ما يرفع. أذكر أبرزها:

1 ـ الشعار المخطوط: أي ما يعرف باليافطة القماشية أو قصاصات الكرتون، التي تتضمن كتابات واضحة ببنط عريض، بليغة من حيث استخدام العبارات المناسبة، ومختصرة بكلماتها كي يسهل على المراقب قراءاتها في لحظات قصيرة أو يتسنى لعدسة الكاميرا المتجولة التقاط مضمون اللافتة بسرعة. ويذكر في اليافطة من حيث المضمون: شعار التحرك، المطالب التي يهدف إليها المتظاهرون، أو كلمات تنم عن حالة القهر والغبن الذي يشعر به بعض المتظاهرين إزاء حالة اللامبالاة و التعنت الذي يمارس ضدهم، وتبدو صورة التحرك ـ من خلال كلمات اليافطات ـ كأنه حالة استنكار ضد مواقف يتظاهر الحشد من أجلها، فمن جهة نجد توافق على سياسة ما فترفع كتابات التأييد التي غالبًا ما يؤشر إليها بنعم كبيرة، ومن جهة أخرى نجد تعارض مع

قرارات سياسية تعتبرها شريحة من الناس مجحفة في حقوقها ووجودها (و تظهر مع النقابات غالبًا، أو قوى حزبية محلية تجاه قرارات سياسة دولية وتتخذ صفة الخطاب المكتوب هنا بكلمة لا الناهية والرافضة). وفي أحيانًا نادرة يحدث في بعض الأوساط المتعددة الأهواء تجاذب بين ال: نعم واللا في فريقين متظاهرين، ليحدث ما يسمى بالتظاهر والتظاهر المضاد، وذلك انطلاقًا من مبدأ الدمقرطة، لا ينسجم كل الأفرقاء على غاية «النعم» بل يقابله آخر برد فعل تظاهري معاكس تجاه نعمه بلا .. وتصبح الشعارات المرفوعة تلاوين خطية تعكس في مضمونها وإيحاءاتها وجهات نظر متنوعة الأطياف ولتعبر عن نسيج اجتماعي تعددي. من أمثلة التظاهرات الأخيرة في بيروت:

- لا للوصاية ...نعم للديموطراقية.
- لا للتدخل الأجنبي .. نعم للاستقلال و للمروبة والحرية.
- لا للمشاريع التقسيمية ...نعم للوحدة الوطنية.
- إن الصلاة في ظل الاحتلال خطيئة إن لم تكن لإزالته.

*** WHOEVER DIGDS A PIT, MAY FALL IN IT *.**

*** UNITED we stand, DIVIDED we fall.**

*** 1.6 million ?! Yeah right I'm alive.**

أما من حيث الشكل، فإن الذي يحدد لون اليافطات وحجمها هو مناسبة الحدث، فاللون المتعارف عليه هو الأبيض لكن في مواقف الأسى ترفع اليافطات السوداء تعبيرًا عن انفعالات الحزن والقهر التي ألمت بالناس، حتى يبدو الموقف وكأنه حالة من الرثاء على فقد زعيم، أو نتيجة انكسار ونكسة في حرب، أو عند استحضار مناسبة حزن تاريخي..

تأتي الشعارات المخطوطة والكتابة على العرائض في إطار آخر، كوسيط مادي ينقل الأفكار والأحاسيس، وكل مجال وسائطي يتبع واقعية ما، وهنا واقعية الحركات العفوية الغاضبة، المحرومة من التطلع الشمولي، المتنكرة لواقع ضاغط، لأن الثورات الشعبية ـ تاريخيًا ـ ومهما كانت لغتها هي الالتقاء

بين فكر وسلطة، هي «رأي يجد له حرابًا» على حد تعبير (ريجيس دوبريه)، حتى لو اتخذت في شكلها السياسي هجومًا على السلطة / الدولة من قبل أقلية فاعلة، فهي أكثر من انقلاب عسكري، إنها تحوّل الكلمة إلى فعل، تحوّل جماعة فكرية إلى جماعة قائدة، تحول الأقلام إلى بنادق، الشعور إلى شعارات و الألم إلى صرخات.

2 ـ **الشعار المنطوق**: ويقصد به ما يردده المتظاهرون خلال مسيرتهم من نقطة انطلاقهم وتجمعهم إلى مكان وصولهم، فهم لا يسيرون بصمت وكأنهم في جنازة، بل على النقيض من ذلك كثيرًا ما تتفتق عبقرية بعض المشاركين بإنتاج «صرخات» صادحة من وحي المناسبة، وغالبًا ما يأتي إطلاق هذه الصرخات هوبرة متسلسلة بإيقاعات مسجّعة كي يسهل حفظها وترديدها من الآخرين، ولغاية ذلك يعمد بعضهم إلى تحريف أغنيات متداولة من الوسط الشعبي (في النموذج اللبناني يحور المتظاهرون: الهوارة، الحورية ودلعونا وزجليات) كذلك هناك الصرخات القصيرة التي تطلق بين الحين والآخر لشد عزيمة الشباب كي لا تبقى المسيرة صامتة، أو تطلق كمحطة فصل بين ترديد مسجع وآخر سينطلق بعد حين ريثما يستحضر «القوال» شيئًا آخر من جعبته. أو تأتي في سياق التعريف بهوية المجموعة المتظاهرة كما حدث في تظاهرة يوم 14 آذار عندما تضافرت مجموعات من كل حدب وصوب، ولا تعرف هوية المجموعة القادمة في خضم هذا الخليط إلا عندما يقول رائدها شيئًا ما عن زعيمه، أو يردد صرخات حول منطقته، منها ما ردده شباب الحي البيروتي في الطريق الجديدة مثلًا: الله/حريري... طريق جديدي، كذلك كانت مجموعة أخرى تصدح: يا لحود طل شوف/شو بيعمل زعيم الشوف.. (وهذا يوحي بأن القادمين هم من مناطق الشوف الدرزي، يحيّون زعيمهم..)، أو تلك التي تردد: يا الله يا الله ... احفظ لنا نصر الله، (وفي ذلك إشارة إلى أن المجموعة من مؤيدو حزب الله وأمينه العام السيد حسن نصر الله). كذلك تعرف مؤيدو «الحكيم» (سمير جعجع) والقواتيون من ترديدهم لعبارات منها: براءة، براءة ... سمير جعجع براءة، وبالمثل يعرف جماعة التيار الوطني الحر من ترديد أنصار زعيمه: بدنا ناكل بدنا نعيش ... بدنا يرجع أبو الميش

(ميشال عون). ونشير إلى أن القوّال غالبًا ما يختاره البعض لأنه جهوري الصوت أو حماسي التحرك، أو بارع في إطلاق القفلات الغنائية برفقة آخر على الطبلة أو الطبل أو الصنج أو المزمار[1].

3 ـ الشعار المرموز: وكثيرًا ما تكون التظاهرة مسرحًا لمواهب الإبداع ليس فقط في الغناء المحرّف والصرخات الحماسية، وإنما أيضًا مع الرسوم والصور ووسائل أخرى مرمزة لما يتظاهر الحشد من أجله وفيما يلي بعض الأمثلة:

- رفع أحدهم مثلًا رغيف خبز: وهذا بدوره دلالة على سياسة التقشف التي تعتمدها الحكومات أو عند الرفض لضريبة ما، أو عند رفع الأسعار لأنها في النهاية سوف تؤدي إلى الفقر وتمس لقمة عيش المواطن.
- أو يرفع أحدهم الحذاء: وخاصة العسكري، وذلك رفضًا لمبدأ العسكرة أو العنف أو الحرب من قبل جهات أمنية تهدد أمن الناس في حياتهم اليومية.
- أو يرفع أحدهم الجنزير الحديدي: وكأن بذلك إشارة إلى السجن، أو الأسر أو سياسة القمع والجور الذي يعتمد من سلطات ما تجاه الناس العُزّل.
- الحبل المعقود وفيه إشارة إلى المشنقة وتباعًا «الإعدام» يرفعه بعضهم استنكارًا لقانون إعدام صدر بحق أحدهم، مما يجعل مناهضي العنف

(1) وثمة صورة طريفة تظهر خلال التظاهر مع الشعار المنطوق، إذ وجدت كيف أنه في بعض الأحيان يتعطل الانسجام بين مجموعة وأخرى، تجد مجموعة المقدمة تردد شيئًا ما، فيتناهى إلى سمع المجموعات الوسطية ـ ونتيجة الضجة أو البعد ـ بعضًا مما يردده الأولون لينطلق هؤلاء بترديد شيء مقارب من حيث الواقع، في حين تغني مجموعات المؤخرة على ليلاها بشيء آخر....

ذكرني ذلك بطرفة رواها لي أحد الأصدقاء، أنه وخلال تقرير وعد بلفور المشؤوم خرج الناس في تظاهرات استنكار، وحدث في إحداها أن المتقدمون في التظاهرة كانوا يصرخون: فليسقط وعد بلفور، ليردد وراءه المتأخرون في التظاهرة: فليسقط واحد من فوق.

وجمعيات رافضي الإعدام التحرك ميدانيًا بشعارات رمزية.

- الدمى والرسم الكاريكاتوري: وفيها دلالات على السخرية والكره والاستهزاء تجاه مسؤول ما، عندما يجسده فئة متظاهرة على هيئة دمية أو رسم كاريكاتوري استخفافًا به وبمواقفه أو تصريحاته.

في مختلف أشكال الشعار المرمز ثمة معانٍ ودلالات، فإذا كانت الصورة تختصر ألف كلمة، فإن الرمز الظاهر في الحشود الشعبية وعلى اختلاف أشكاله يختصر المواقف كلها، لأنه واجهة لغوية إضافية قد تغني عن معانٍ كثيرة لايمكن للكلمات وحدها أن تنقلها، الرمز ـ في مدلوله ـ بديل لشيء نستجيب له بطريقة غير مباشرة وهذه الاستجابة عملية تتضمن فترة يتخللها التفكير والتأمل والتذكر، لتصبح سلوكًا معرفيًا يستعمل من جانب الإنسان لينبه به نفسه تجاه عالمه الخاص أو محيطه العام. بواسطة الرموز يستطيع الإنسان ـ من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي ـ استثارة وتنبيه الآخرين باعتبارها عملية اجتماعية يشترك فيها صاحب الرمز والمرموز إليه، ويظهر ذلك فيما نلاحظه عند الإنسان من ميل نحو الانفعال أو الغضب معبرًا عن ذلك في شكل أصوات أو رسوم أو تصرفات أو إيحاءات تبدو للآخرين بمثابة رسالة.

ومن الأمثلة على الشعار المرموز ما ظهر منه خلال تظاهرات بيروت الحاشدة، ما رفعه أحدهم من قرآن كريم وأيقونة تمثل السيد المسيح وقبعة بيضاء يرتديها مشايخ الطائفة الدرزية وفي ذلك إشارة إلى الوحدة الوطنية القائمة والمرجوة على الدوام بين أبناء الشعب اللبناني بكافة طوائفه الإسلامية والمسيحية والدرزية.

إلى جانب الشعارات المذكورة هناك الصور التي يوحي فعل رفعها دلالات عدة منها:

- التبين الدلالي اللغوي حيث تتلازم الصورة مع حاشية شرح ثابت كوظيفة إرساء ونقل للمعنى (ويظهر هذا جليًا مع صور زعماء الاغتيال السياسي

والتنويهات المرافقة: القائد الرمز/ الحلم / على عهدك مستمرون / باقٍ في قلوبنا. .الخ).

- العامل الأيقوني المباشر عندما تبرز دلالة الصورة من خلال ردها إلى عناصرها الموضوعية الخالصة بحذف المعاني المتراكمة (صورة الشهيد أو الراحل أو الزعيم دون أية كتابة . .).
- العامل الأيقوني المركب الذي يظهر عندما يكون للصورة دلالاتها الثقافية والمجتمعية، لا يتبيَّنها المرء على وجه جلي كونها تتضمن مزيدًا من الإيحاءات (الصور المركبة بطريقة إعلانية وتعليقات ساخرة عليها . .).

والإعلام عبر اليافطات والشعارات يبرره منظرو الدعاية بعوامل نفسية واجتماعية، وذلك عند حديثهم عن الخلفية النفسية الكامنة في وعي الجماهير، ثمة حالات شعبية يسيطر عليها شعور عام من الفرح أو الحزن، فتأتي الشعارات عندئذ لتعبر عن هذا المزاج النفسي، وكما أشرنا آنفًا عن الحشود الشعبية المتظاهرة كيف تخضع لقانون الوحدة العقلية حتى تصبح جمهورًا نفسيًا منظمًا، كذلك تأتي الشعارات خلال التظاهر كبثّ إعلامي مباشر بين المشارك / المتظاهر والآخرين يعمل على تصريف الانفعالات المكبوتة إعلاميًا ونفسيًا وفكريًا، ويعزز لدى صاحبه ليس فقط المشاركة الجسدية وإنما الحسية والذهنية.

وهذا ما يؤكده سوسيولوجيُّو الاتصال بأن هناك خط اتصال بين الحالة الاتصالية والموقف النفسي للناس والشراكة بأهمية الحدث الإعلامي ومدى ما يتركه ذلك من انطباع واهتمام، إنها معادلة متعددة الأطراف ذلك أن مضمون شعار ما مثلًا يضعنا دائمًا أمام تحليلات تفصيلية لذلك الشعار، فإذا كان الشعار مطابقًا لاستعداداتنا يكون تأثيره أكبر، كذلك إذا كان متناسبًا مع الوقائع الموجودة يكون التأثير واضحًا أيضًا، بينما في حالات أخرى قد يتكرر الخبر خمس مرات بشكل متوسط، وتتلى الشعارات مرارًا دون أن يثير ذلك رد فعل جماهيري، لماذا؟ لأنه لا يتلاءم واهتمامات الناس ولا يتناسب والوقائع الطارئة. من هنا يحرص قادة الرأي الداعين إلى التظاهرات على توضيح الغاية منها أو تحديد عناوينها المطروحة (شعار التظاهر) لأن الناس لم تعد تنخرط

في التظاهرات بآلية القطيع بقدر ما أخذت تعي الجدوى من هذا التحرك الشارعي، وهذا يعني أن رغبة الناس في التظاهر بات يحددها ـ أولًا ـ مدى اهتمامها واقتناعها بالشعارات المرفوعة، وتلبية لرغبة الداعين إليها ثانيًا، ذلك أن حشد التظاهر يحدث في أحيان كثيرة بفعل بعض المحرضات المثارة من الآخرين أو نتيجة للعبة وسائل الإعلام الذكية في تضخيم الأمر.

ولكن ـ على الرغم من ذلك ـ يتوقف رد فعل المشاركة بالحشود عند رغبة المرء واقتناعه، فقد لاحظتُ (المؤلف) مثلًا ـ وعبر آراء مستطلعة ـ كيف أن كثيرًا من الناس لا يشاركون في التظاهرات رغم دعوة منظموها المتكررة لأنهم ليسوا مقتنعين مسبقًا بجدوى هذه الشعارات، بينما في حالات أخرى تأتي المشاركة ـ عفويًا ـ دون دعوة أحد أو بناء لطلب، لأنهم أدركوا شعوريًا مغزى الحدث وأقنعوا أنفسهم بضرورة المشاركة، وهذا ما لمسته خلال لقائي لعدد من الناس أثناء التظاهر كيف أنهم كانوا يبادروني بالقول: «لأول مرة في حياتي أشارك في تظاهرة، لم يكن ذلك بناء على دعوة من أحد إنما تلبية لنداء داخلي وإحساس بالمشاركة الوجدانية مع الآخرين» وقد عبّرت إحداهن بالقول: «لم يكن التظاهر يعني لي شيئًا من قبل ولكن بعد مشاركتي اليوم أحسست بأنني شخص آخر يهتم بالقضايا السياسية والوطنية، وإن ثمة فرح غامض تشعر به في داخلك»؛ وأخرى تعلق: «جاء نزولي إلى الشارع في آخر لحظة، بعدما كنت أشاهد كثافة الحشود على التلفزيون، لأتركه وأنطلق نحو الشارع كي أسجل موقفًا تجاه نفسي ـ أولًا ـ بأنني شخص ينبغي أن يكون له حس ما، وتجاه الآخرين ثانيًا، الذين أرفض توجهاتهم ولا أعتبرهم ممثلين لي».

وتحقيق مثل هذه الخطوة / المشاركة ليس أمرًا سهلًا، لأن التحرر الذهني من الأفكار المسبقة، وإعادة النظر في جميع ركائز الفكر الموروث مسائل يتطلب تبدلها بعضًا من الوقت، ولكن في ظرف تاريخي سرعان ما يؤمن المرء إيمانًا راسخًا بإمكانية التغيير جذريًا دون أية مقدمات، فيكيف نفسه مع فكرة هذا الإيمان لتترجم على الأرض تحركًا مطلبيًا، وبقدر ما يعي الناس بأن هذا الظرف التاريخي مفصليًا بقدر ما تتسع دائرة المشاركة نحو شرائح شعبية واسعة تطال حتى البرجوازية منها.

ثالثًا ـ الشباب والتظاهر: إستراتيجية تغير.

هل ما زال ينظر إلى الشباب على أنهم نواة التغيير في المجتمع؟ هل هم فعلًا «ثروة وثورة» كما وصفهم أحد الأدباء اللبنانيين؟ كيف يحقق الشباب وعيهم الاجتماعي للقضايا الوطنية، بالعنف والتمرد أم بالخنوع أم بالتحركات الاحتجاجية؟ في أي اتجاه يسير شباب لبنان اليوم هل الاعتصام والتظاهر يمكن أن يؤشر إلى فعل لتغيير؟ في بلد مثل لبنان يمثل الشباب الثروة الحقيقية والعامل الأكثر أهمية في دفع التنمية، وذلك لاعتبارين أولهما ديموغرافي حيث أن المجتمع اللبناني مجتمع فتي (45% دون سن ال25) وثانيهما: مستقبلي لجهة المشاركة في القرارات. من هنا يطرح دور الشباب كطاقة بشرية من حيث هم عنصر تطور يمكن استشراف مستقبل البلاد من خلال طاقاتهم الراهنة، فلم يعد ينظر للشباب على أنهم متلقين للسياسات والأوضاع الحالية وحسب، إنما يتجاوز ذلك إلى اعتبارهم عامل تغيير ورصيد بشري واجتماعي مشارك.

ولطالما كان الشباب اللبناني جزءًا من الحياة المدنية والسياسية، فالتاريخ يبين محطات نضال عديدة قبل الاستقلال وبعده، فقد شاركوا في تحرير لبنان من الانتداب الفرنسي، كذلك قادوا الحملة الوطنية على تأسيس دولة إسرائيل في العام 1948، وتطوعوا في المقاومة ضدها ولما تزل، وكانت مشاركة الشباب ناشطة أيضًا عبر التظاهرات لتأسيس الجامعة الوطنية، وشكلوا عبر السنين الشريحة الأساسية في فرق التطوع والمجتمع المدني، كما لعبوا دورًا خلال الحرب عندما انضم القسم الأكبر منهم إلى الميليشيات، أما القسم الآخر فأخذ يشارك بتظاهرات سلمية ضد الحرب ومآثرها. لأنها كانت تؤثر عليه في اتجاهاتها الاجتماعية والنفسية بشكل حاد وكان لهذا دور كبير في قطع ما يمكن اعتباره مسارات طبيعية لتطور مواقف الشباب ومنظوماتهم القيمية وخصائصهم النفسية والفكرية على مختلف المستويات.

وقد أظهرت عدة تحقيقات اجتماعية واستطلاعات رأي حول توقعات الشباب اللبناني عدم رضى هؤلاء الشباب بشكل عام عن ظروف حياته، نتيجة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم.

من هنا يجد الشباب / اللبناني نفسه، وإزاء الواقع المزري، أمام اعتماد إستراتيجية التغيير وفي هذه الإستراتيجية طرق تعبير وتحرك مختلفة منها: إستراتيجية القوة، التي تقوم على قاعدة من أساليب الضغط سواء في شكله السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو القوة المعنوية ـ حسبما أشار إلى ذلك كل من روبرت شن وكينث بيين (1985) في مؤلفهما التغيير المخطط ـ. ويمكن لهذا الضغط أن يظهر بشكل عنفي (الثورات / حركات التحرر . .) وإما بشكل لاعنفي الذي يظهر بصورة الاعتراض الهادئ غير العنيف عبر وسائل منها: مقاطعة المستهلكين لشراء منتوج ما، الامتناع عن دفع الضرائب، مظاهرات الحقوق المدنية، الرفض المعلن (كرفض الشباب في سن التجنيد من الانضمام إلى الخدمة العسكرية) والعصيان المدني. خلال هذه الإستراتيجية والتي تعرف بإستراتيجية الإكراه القوية، يمكن تحقيق الأهداف والحصول على الامتيازات أو الاتفاق على مجمل الحقوق، وفق مجموعة من الخطوات:

1 ـ محاولة حل الخصومة بواسطة التفاوض.

2 ـ استخدام الدعاية في الشرح والوصف والتأييد(وكلاء التغيير السياسي المعارض وظهورهم المكثف في الإعلام والشارع . .).

4 ـ استخدام صور مختلفة من المقاطعة وعدم التفاوض مع السلطة.

5 ـ تصعيد التحرك بخطوات شعبية / سلمية.

وهكذا نجد أن التغيير عبر التحركات الشعبية المتظاهرة لا يدوي صداها إلا بعد مرورها في عمليات عدة، فدعاة التغيير والتظاهر من الشباب يعوا بأن لديهم حرمان نسبي أو ثمة قهر وغبن قد ألحق بهم حتى أوصلهم إلى حالة الإحباط، يأتي بعدها مرحلة تعاظم الغضب لينفجر ذلك جماهيريًا بتحرك عنفي أو سلمي. وبناء على معظم الكتابات التي تناولت التغيير الاجتماعي المخطط اعتبرت أن التحرك اللاعنفي أمضى وأقوى من العنف الحقيقي. ذلك أن الشباب يعمدون خلاله إلى إيجاد العوامل المناسبة له والتوعية بشأنها، ثم تهيئة الظروف الملائمة للتحرك، ثم التشديد على الاستمرارية في هذا التحرك (سر قيام خيم الاعتصام) وصولًا إلى تحقيق الأهداف المنتظرة والمرغوبة.

يرى عالم الاجتماع الفرنسي ألان تورين: «أن زمن الأحزاب السياسية والتقليدية والحركات الأيديولوجية قد انتهى، وأن «تجمعات» سياسية وثقافية قد حلت محلها مثل التجمعات الشعبية التي تمكنت في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات من إسقاط الأنظمة الشيوعية في دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي دون تنظيم مسبق ودون اللجوء إلى العنف، وميزة هذه الحركات ثلاث صفات: غياب الأيديولوجية الموحدة، غياب القيادة المركزية وتغلب التعددية التي جمعت فئات الشعب المختلفة سياسيًا واجتماعيًا، وضمت الطلاب والعمال والنساء وجماعات كبيرة» .. فهل يمكن القول بأن لبنان دخل مع شبابه مرحلة الحركات الاجتماعية الجديدة الهادفة للتغيير؟.

الإجابة على هذا السؤال بحاجة إلى بحث أعم وأشمل، بل مرهون بانتظارات الشباب والنتائج التي يمكن أن تحصل، سيما وأنهم على تباين واضح في المنطلقات والتوجهات إزاء قضاياهم المصيرية، ثمة «موزاييك» من الآراء المستطلعة هنا وهناك، عند كل موقف أو مسألة أو تحرك.

* من الآراء المستطلعة

مقاربة لموضوع البحث حول ظاهرة التظاهر ودواعي المشاركة استطلعتُ (الباحث) آراء بعض الشباب والشابات ممن شاركوا وأولئك الذين لم يشاركوا في تظاهرات بيروت وأخصها التي حدثت في 8/ آذار / 2005 بدعوة من لقاء الأحزاب اللبنانية وعرفت بتظاهرة المعارضين للسلطة اللبنانية، وتلك التي حدثت في 14/ آذار/ 2005 بمناسبة مرور شهر على اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري، والتي صنفت على أنها تظاهرة الموالاة .. فماذا تعني المشاركة في التظاهر بالنسبة للشباب اللبناني؟ ولغاية الإجابة بشكل موضوعي عمدنا إلى استطلاع رأي عينة كبيرة من أبناء المجتمع اللبناني في مختلف مناطقه، طال هذا الاستطلاع مجموعات شبابية موزعة بين عكار / طرابلس/ المتن الشمالي/ الشوف / حاصبيا/ النبطية/ الضاحية الجنوبية / زحلة / الهرمل/ بيروت / البقاع الغربي، وفق البيانات التالية:

1 ـ توزع المستجوبين بحسب العمر:

فئة الأعمار	النسبة المئوية%
20 سنة وما دون	%13
30 ـ 21	%52
40 ـ 31	%23
50 ـ 41	%6
60 ـ 51	%3
61 وما فوق	%2

يلاحظ أن المشاركة طالت كافة الأعمار إلا أن النسبة الأعلى كانت لفئة أعمار الشباب (21 ـ 30) ممّا يؤشر إلى طبيعية مشاركة الشباب الدائمة للحركات الاجتماعية.

2 ـ توزع المستجوبين بحسب الجنس:

الجنس	%
ذكور	%47
إناث	%53

هناك تقارب بين كلا الجنسين في المشاركة، إلا أنها مرجّحة عند الإناث مما يعطي انطباعًا عن مشاركة فاعلة من الفتيات بالتظاهرات ولوعي سياسي من قبلهن إزاء ما يدور حولهن.

3 ـ توزع المستجوبين بحسب المناطق:

المنطقة	%
بيروت	%23
جبل لبنان	%22
الجنوب	%20
الشمال	%19
البقاع	%16

obeikandl.com

تبين أن المشاركة كانت تطال أبناء كافة المناطق اللبنانية على حد سواء، وبدت بيروت كأعلى نسبة باعتبار أن التظاهرات كانت تتم غالبًا في وسط العاصمة بشكل مختلف عن أبناء المناطق النائية الذين يجدون أحيانًا مشقّة في الانتقال.

4 ـ توزع المستجوبين بحسب نسبة المشاركة:

الرغبة في المشاركة بشكل عام	%
نعم	61
لا	%37
لا رأي	%2

وعند توزع نسبة المشاركة أظهرت النتائج بأن حوالي ثلثي العينة يرغبون دومًا المشاركة، في حين وجد من نسبتهم 37% أنه لا تعني لهم ولا يرغبون بالمشاركة.

5 ـ توزع المستجوبين بحسب رأيهم في قدرة التظاهر على التغيير:

المظاهرة والتغيير	%
تغيير نحو الأفضل	%77
تغيير نحو الأسوأ	% 5
لا تغيير	%18
لا جواب	

تبين أن 77% من المستجوبين يرون بأهمية التظاهر في التغيير نحو واقع آخر قد يكون أفضل مما كان.

6 ـ توزع المستجوبين بحسب نظرتهم إلى التظاهر؟

التظاهر هو	%
تعبير ديموقراطي	%79
فوضى وشغب	%3
حشود لا تعرف ماذا تريد وإلى أين تذهب	%17
غير ذلك	%1

وعن تقييم المستجوبين لحركة التظاهر فإن الغالبية تراها تغيير ديموقراطي (79%).

7 ـ توزع المستجوبين بحسب اعتبارهم التظاهر «حل» القضايا المصيرية.

التظاهرة حل	%
نعم	%87
لا	%27
لا رأي	%4
إحدى الحلول	%2

ولكن يمكن اعتبار التظاهرة حلًا يمكن اللجوء إليه عند كل قضية متأزمة، أو مشكلة اجتماعية أو سياسية طارئة، حول ذلك عبر من نسبتهم 87% إيجابًا مقابل 27% لا يرون في التظاهر سنين من هذا القبيل.

8 ـ توزع المستجوبين بحسب التظاهرات المشارك بها:

اتجاه المتظاهر	%
موالاة	%32
معارضة	%41
الاثنين معًا	%5
لم يشارك	%22

إزاء أي حدث لبناني ـ سواء كان سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا ـ سرعان ما ينقسم الناس «فرقاء» وبالمثل كان الانقسام عن المشاركة أو الآراء حول ظاهرة التظاهر، فقد كان لدى كل فريق حجته في التظاهر، إما إثباتًا لوجود أو تسجيلًا لموقف أو إحساسًا تجاه شعار أو بناء لدعوة زعيم أو تلبية لرغبة ذاتية، أو نتيجة لإكراه أو ما شابه، ولعل عينة الآراء المستطلعة تعكس مونوغرافيا لبنانية في الاختلاف والتنوع ما بين موالٍ (32%) معارض (41%) وموالٍ ومعارضٍ في آنٍ (5%) ولا مبالٍ (22%)، ونورد أبرزها كمثال: يقول أحد المشاركين في تظاهرة 8 آذار (المعارضة)، «جاءت مشاركتي ردًا على احتكار البعض الآخر للمواقف.... واعتبارنا غير معنيين بالتغييرات الحاصلة، بل لنبين أنا ومن معي بأننا نرفض التهميش»، كذلك تذكر سيدة في الخامسة والثلاثين من العمر، تعمل في مجال التدريس، بأن مشاركتها في التظاهرات الموالية إنما جاء لتسجيل موقف عبر حضورها على الأرض لأنها تجد في بعضها «ما يقنعني بأهدافها».

أما عن المشاركة في تظاهرة 14 آذار (الموالية)، تقول إحداهن من بيروت: «جاءت مشاركتي لأكثر من سبب منها لأرى هل كل الشعارات التي تطرح يتمثلها الناس حقيقة على الأرض ويريدونها فعلًا، وثانيها لأنني سنية (من الطائفة السنية) كي أبيّن أنه في استطاعة أبناء هذه الطائفة ـ التي طالما عرفت السكون والاعتدال ـ التحرك المنفعل، وثالثها كي أحس بأنني مشاركة في مطلب ما». وضمن هذا الموقف أيضًا تقول أخرى من الطائفة المسيحية: «إنني أنتمي إلى فئة من الناس شعرت لوقت طويل بأنها مقموعة ولم يكن لها أن تعبر أو حتى تحكي، وقد جاءت دعوة التظاهر فسحة لنا كي ننطلق ونرفض ذلك القمع».

وقد وجدت أن هناك من شارك في كلا التظاهرتين، ولدى السؤال عن السبب يبرر مشارك من البقاع ذلك بقوله: «لقد شاركت في الأولى لأنه لم يكن لدي خيار، بحكم أني أعمل لدى أحد الموالين وطلب منا المشاركة، لذلك أن تشارك أفضل من ألا تشارك، في تظاهرة الثلاثاء (الموالية) وجدت أناس كثيرون مثلي مسيرون وليسوا مخيرون، في الثانية تشعر بأن شيئًا يدفعك للمشاركة دون تردد» وتشير مشاركة من الجنوب بأنها تؤيد: «بعض طروحات المعارضة وبعض طروحات الموالاة، لهذا جاءت مشاركتي للاثنتين، و لكي لا أظهر بمظهر المنحازة لأحد».

ومثلما قد تجد أناسًا شاركوا في كلا التظاهرتين لأسبابهم الخاصة، فإننا وجدنا آخرون رفضوا المشاركة في كلا التظاهرتين، ومن آرائهم: «أنا أعرف التظاهر على أنه فعل التأييد، وبما أنني لا أؤيد طروحات كلا التظاهرتين، أو مقتنعًا بأي من الموقفين فضلت البقاء في المنزل مع قناعاتي الخاصة»..، وكذلك عبرت أخرى بقولها: «لم أشارك لأنني أرفض أن أكون رقمًا يعد! فالذي بدا أن كل فريق كان يسعى لحشد أكبر عدد من الناس ليبين مدى شعبيته، ولأنه كذلك رفضت أن أنساق، خاصة وأنه سيأتي وقت يحصّل فيه الكبار مغانمهم ويذهب جدوى التظاهر سدى».

كما يبدو الانقسام الحاد في الآراء والمواقف والاتجاهات المؤدلجة

التي تميز اللبنانيين. ولاحظناها في الآونة الأخيرة في أكثر من مسألة: كمسألة إقرار الزواج المدني، أو إلغاء الطائفية السياسية، أو حل الأحزاب، أو إقرار قانون انتخاب، أو فرض ضريبة القيمة المضافة، كذلك كان هو الحال إزاء دواعي التظاهر وشعاراته حيث غنى الآراء المتفاوتة والانقسام الشعبي الجلي في الشارع والحياة اليومية عند اللبنانيين ـ أي ما يسمونه اليوم بالاصطفاف ـ الذي وصل بدوره ليتمثل ميدانيًا عند المشاركة بالتظاهرات، إذ انقسم الناس ليس فئتين وحسب (مع أو ضد) وإنما انقسموا إلى أربع: موالٍ ومعارض، ومؤيد الاثنتين ورافض لكل شي. ويمكن إرجاع هذا التفاوت إلى أكثر من عامل:

- هناك العامل الاجتماعي المتمثل في «إطار المرجع» الذي يترعرع فيه الشاب ومدى تقبله واستعداده للقيم التي يقدمها أسياد ذلك الوسط، حيث من شأن هذا الاستعداد أن يربي وينمي فيه قيمًا متضادة: التبعية والاستقلال، الفردية والجماعية، الثورية والمحافظة، التقبل للآخر أو رفضه.

- وهناك العامل السياسي/ الحزبي أو «التعبئة الأيديولوجية» حيث يتم هنا وعلى حد تعبيرالسوسيولوجي فردريك معتوق «فتل الذاكرة الشعبية» وتقنية الفتل هذه يلجأ إليها عادة طرف من الأطراف عندما يختار صورة تاريخ ما (حادث عبر/ مأساة زمن مضى/ ...) كي يستثير من خلاله مشاعر آخر، ليقوم الآخر بدوره باستحضار صورة أخرى بالمقابل وتبدأ الصراعات بين الذاكرات الشعبية، ومثل هذه الاستثارة المتبادلة بين الأطراف من شأنها أن تعزز وتدخل أي حوار في دائرة التخاصم التخاطبي ومع الفتل تنمو الأيديولوجيا كذهنية خاصة جدًا، تتسم بإطلاقية غير محدودة للعصبية والقبلية، حتى تجعل حامل الأيديولوجيا وكأنه مصاب بحمى زائدة، لايستطيع أن ينظر إلى العالم الآخر سوى نظرة مخطئة وبأنه وأنصاره هم على «صح»[1].

(1) د. فردريك معتوق، جذور الحرب الأهلية، مرجع سبق ذكره.

- وهناك العامل النفسي الذي تحركه مثيرات ومحرضات إعلامية أو خطابية مما جعل هذا الشاب ـ الذي لم يكن أصلًا يهتم ـ يتجه إلى تأييد أو رفض ما تتناوله وسيلة ذلك المحرض. ولكم دخل الإعلام ووسائله ـ لبنانيًا ـ لعبة التنازع والأدلجة حتى عمق الشرخ النفسي بين الناس، لما لا؟ أوَ ليس هو «بوق» الأفرقاء.

كان كلٌّ يفرز أيديولوجيته الخاصة، لأن كل امرئ ـ وكما يقول فرويد ـ: «ينتمي إلى عدة أرواح جماعية: روح عرقه، روح طبقته وروح طائفته» فهل الواقع المائل في ظاهرة التباين على التظاهر يندرج تحت هذا القول؟ أم أنه دلالة على روح الديموقراطية والتعبير الحر وقبول رأي الآخر كما يدّعي البعض؟ وهل أن الأفكار النضالية ستموت وتتلاشى كزمن منتجيها وتتحول إلى «طوبى جديدة» بعد التظاهر؟.

obeikandl.com

استطلاع رأي (5)
الفتيات وأشكال التحرش

مدخل

بعدما كثر الحديث عن ظاهرة التحرش الجنسي في الآونة الأخيرة عبر وسائل الإعلام وخاصة حادثة الاعتداء التي حدثت خلال ليال عيد الفطر (2006) في وسط العاصمة المصرية، عندما تعرضت فتيات بين المارة إلى مضايقات سافرة من شباب موتورين[1].

ومع تنامي خوف الفتيات من الاعتداء عليهنّ حينما يكنَّ في طريقهن إلى العمل أو الدراسة بعد الأخبار المرعبة التي يسمعنها يوميًا عن حوادث تعدي واغتصاب.

وإزاء الشكاوى العديدة من نساء عديدات عن مضايقة الرجال لهن سواء في مكان عملهن أو خارجه. تكثر التساؤلات عن الأسباب والدوافع وسبل العلاج المفترضة لهذه الآفة الاجتماعية، ارتأيتُ مقاربة هذه الظاهرة سوسيولوجيًا من زواية:

- ✓ **المرأة في مكان عام:** لماذا وجود المرأة في مكان عام ذو إشكالية اجتماعية أو ثقافية أو حتى دينية؟ إلى ما يعود خوف «الأنثى» منفردةً وسط عالم من الرجال؟.
- ✓ **المرأة ومداها الشخصي:** ما هي الحدود المرسومة في علاقة الأنثى بالآخرين؟ هل هناك مسافات يفترضها حضورها العام والخاص؟ هل يعي

(1) «الحق على البنات»، (مقالة)، ملحق صحيفة النهار اللبنانية 19/ 11/ 2006.

الآخرين هذه الحدود ويحترمونها؟ وماذا يحصل في حالات الاختراق؟.

- ✓ **المرأة ومعاكسات الشباب:** ماذا يقولون لها؟ كيف تتصرف هي إزاء المضايقات والمعاكسات الحاصلة؟ هل صحيح أن المرأة تُسَرُّ حين تلفت نظر الآخرين ويبدون الإعجاب بها والكلام عنها؟.

1) المقاربة النظرية:

يأتي حديثنا عن ظاهرة التحرش الجنسي هامًا بطرحه لجهة الوقوف على أسبابه ودوافعه وآلية الحد من آثاره. إذ لا يكفي أن نتكلم عما يحدث كما يرد في نشرات الأخبار، بل لا بد من تشخيص الحالة والنظر في سبل المعالجة.

* المسألة الأولى:
المرأة والأماكن العامة: هاجس الانفراد

لنميّز أولًا بين الأماكن العامة والتي نقصد بها: رصيف الشارع، موقف السيارات، محطات الانتظار، مداخل المؤسسات؛ عن الأماكن الخاصة مثل: المقاهي، المطاعم،المسابح المختلطة، المكتبات العامة، مكاتب الخدمات، شركات التوظيف. الأولى هي مكان مفتوح أمام أناس غرباء دون رقيب. أما الثانية فهي عبارة عن مجالات تواصل يتيسّر فيها لكل من المرأة والرجل مساحة من الحرية دون أن يكون للطرفين أية علاقة أو حتى معرفة وثيقة، يتصرّف كلاهما على شيء من التحفظ لأنه موجود وسط جماعة.

ولكن لماذا وجود المرأة «وحيدةً» في مكان عام يبدو مثار قلق وتساؤل؟ لماذا هو مستهجن ومستغرب في أوساط دون أخرى؟ في بعض مجتمعات الشرق الأدنى والأوسط (المحافظة) تلازم المرأة بيتها ونادرًا ما تكون وحيدة في مكان عام، حتى الأسواق والمقاهي هي مجالات الرجل دون النساء بالمطلق، كما هو الحال في ماليزيا/ السعودية مثلًا حيث يحظر على المرأة الظهور في مكان عام، بينما مسموح به إلى درجة ما في بعض الأماكن التي يرتادها النساء، بينما في الأوساط الأوروبية والأمريكية تظهر المرأة بحرية تامة في الأماكن العامة والخاصة، ويعتبر أي تخصيص لأماكن دون جنس آخر هو

بمثابة نوعٍ من التمييز الجنسي المرفوض أصلًا. إن تخوّف المرأة من أن تكون وحيدة في مكان ما يعود في بعض أسبابه:

- ✓ إما إلى رغبة داخلية مكبوتة في اللاوعي قوامها احترام تابوهات دينية وأخلاقية ـ تقليدية وتجنب معاندتها حتى لا تحدث أمور رديئة كانت بغنى عنها، لهذا تفضل أن تكون بمنأى عن كل ما من شأنه أن يزعجها من فضول الرجال بالكلمات أو النظرات أو أي تصرف فيه نوع من التحرش.
- ✓ إما إلى «حفظ سمعة» حتى لا يُفهم مقتضيات وقوفها على الطرقات على أنه شبيه بوقوف ما يطلق عليهن: «فتيات الطريق» اللواتي يقفن على الأرصفة منتظرات فرصة التقاط شباب لممارسة البغاء.
- ✓ أو إلى قلق «بديهي» من حالات اعتداء جسدي أو تحرش جنسي عنيف أو اغتصاب دون أن يكون أحد ما إلى جانبها (خاصة وأن مثل هذه الاعتداءات تحدث في أماكن عامة: حديقة/ طرق فرعية/ أروقة مؤسسات/ أنفاق للمارة...).

وعلى هذا يأتي ـ وبحسب رأي إحدى الباحثات الأمريكيات ـ وجود المرأة في مكان عام «فرصة سانحة» ليفجر بعض المهووسون ـ أو المعنّفين من قبل نساء أخريات ـ كبتهم أو غضبهم أو حقدهم على النساء ـ على واحدة منهن فيعمدون إلى دفعهن أو قهرهن أو حتى ضربهن انتقامًا أو تنفيسًا لكبت عايشوه مع أنثى. فتكون الضحية بمثابة كبش فداء[1].

* المسألة الثانية:

المرأة والمدى الشخصي: احترام المسافات

عندما نتحدث عن حالات اعتداء على أي فرد (وعلى نحو مخصوص المرأة) يعني ذلك تعدٍّ ـ وبمعنى ما ـ على «ملكية خاصة» تشوهت بموجبه خصوصية هذا الشخص وصورته النقية أوتهدد كيانه الحر، ومثلما يعمد بعضنا

(1) Schaefer, Richard: Sociology, 11th edition, new york, mcgraw - hill, 2008.

إلى تحديد ممتلكاته على مساحة معينة من الأرض لتكون بالنهاية خاصته يُمنع انتهاكها، كذلك يكون الحال في عالم تواصلنا الاجتماعي، على حد رأي العالم الأنتروبولوجي الأميركي إدوارد هول الذي يرى أن هناك مجالًا هوائيًا محددًا حول جسد كل منا، يعتبره بمثابة مدى فضائي خاص يمتد على مسافات معينة و مناطق محددة يسميها اصطلاحًا بالمسميات التالية:

1 ـ **المنطقة الحميمية**، وهي المنطقة القريبة من جسد الإنسان حتى مسافة نصف متر منه، لا يسمح الدخول إليها إلا القريبون عاطفيًا ونعني: المحبين، الوالدين، الزوجة، الأولاد، الأصدقاء، الأقرباء.

2 ـ **المنطقة الشخصية**، وهي المسافة التالية من محور جسدنا، تمتد ـ وبالقياس ـ بين نصف متر وحتى المتر ونيف، تتحد غالبًا عند لقاء الأصحاب والعلاقات الاجتماعية في المناسبات والحفلات الرسمية واللقاءات الودية.

3 ـ **المنطقة الاجتماعية**، إنها مسافة الذين لا نعرفهم جيدًا تمتد حتى مسافة الثلاث أمتار، تتحدد حين نقف إزاء أناس غرباء نقصدهم أو يقصدوننا لخدمة ما: كالسمكري أو النجار الذين يأتيان لإصلاح شيء في المنزل، أو كما هو الحال مع موظف العمل الجديد.

4 ـ **المنطقة العامة**، وهي المنطقة التي تلي المنطقة الاجتماعية تتحدد غالبًا عندما نتوجه إلى جمع ما من الناس بالكلام نقف عندها على مسافة مقبولة (ثلاث أمتار وما فوق) لنخاطبهم.

وبناء على هذه المسافات ندرك ماذا يعني التطفل، فعندما يدخل غريبًا منطقتنا الحميمية نستفز ونعتبره بمثابة تعدٍ ونتحفز للهجوم، وحين نتساهل مع غرباء في أن يتحركون داخل منطقتنا الشخصية لظرف ما (الطبيب مثلًا) نبقى على حذر من أن يدخل منطقتنا الحميمية، لهذا ـ وفي حال تطفل أحدهم على منطقتنا الحميمية أو حكم ظرف الواقع بأن نكون قريبين منه (داخل مصعد أو جنب إلى جنب على مقاعد الباص) ـ فإن ثمة تغييرات فسيولوجية تجري في أجسادنا، يبدأ القلب يضخ بكيفية أسرع، يتدفق الأدرينالين في مجرى الدم ثم

يرسل إشارات إلى الدماغ والعضلات تهيئ جسدنا لصراع محتمل أو لحدوث حالة هروب عند الاعتداء العنيف. وهذا ما يشير إليه الباحث السيكولوجي غسان يعقوب بقوله: «إن المتعضي (الكائن الحيوي) من الوجهة البيولوجية يقوم عادة باستجابتين إزاء الخطر، الهرب أو الانسحاب، والعراك / الهجوم وعندما لا يتوصل الفرد إلى درء الخطر أو تجنبه يصاب بالقلق الذي يعني عدم القدرة على التحرك والسيطرة على الوضعية»[1]. من هنا نستطيع أن نعلل سر احمرار الوجه والإرباك الذي يُلاحظ عند الفتيات في الأماكن المغلقة والمكتظة ثم بقائهن مستعدات للعمل بمقتضى الاستجابة.

* المسألة الثالثة
المرأة ومعاكسات الشباب: نزعة التقارب

تتميز المجتمعات الحديثة في المقام الأول بالتعامل غير المباشر الذي يفتقر بداية إلى الحضور الإنساني المتبادل، وهذا ما يدفع البعض إلى التصرف بوحي النزعة إلى التقارب، أي الرغبة و الميل إلى لقاء الناس بصورة مباشرة قدر الإمكان، الذي يبدأ عبر أحاديث عابرة ثم - وبعد حين - يتطرق الطرفان إلى بعض الخصوصيات لينتهي الأمر إلى تعارف ومواعدة على الالتقاء ثانية بهدف تمتين هذا التعارف في علاقة اجتماعية / شخصية دائمة. هذا في الإطار العام إنما في عالم الجنوسة تأخذ مجالات التواصل حذرًا أكبر، خاصة عند اقتحام الفضاءات التي تخص النساء من دون أن تكون بين الطرفين أيّة علاقة أو معرفة مسبقة، إذ في الوقت الذي يلمس فيه رجل يد امرأة ما تسير بجانبه ليدلها على الطريق أو ليساعدها على اجتياز عائق معين أو يلمس ظهرها لتدخل بابًا قبله، ويعتبر المجتمع هذا التصرف دليلًا على التهذيب والاحترام، نجد أن التقليد الاجتماعي يتخذ اتجاهًا معاكسًا عندما تقتحم المرأة الفضاء الشخصي للرجل حيث يعتبرها حينئذ محاولة للاستمالة

(1) غسان يعقوب، سيكولوجيا المراهقة، دار النهار للنشر، بيروت.

والاجتذاب الجنسي، إزاء هذه المفاهيم بدأت محاولات عديدة في كثير من المجتمعات لوضع قوانين ومقاييس سلوك للحيلولة دون التحرش الجنسي والحفاظ على الفضاء الشخصي لكل من النساء والرجال على السواء . .

ورغم أن بعض القوانين الجزائية لم تنص صراحة على عقوبات واضحة ومحددة لكل حالة تحرش، باعتبار أن هذا المفهوم هو بحد ذاته مختلف الأبعاد، حيث هناك:

- **تحرش غير مباشر**: عندما يعمد رب عمل مثلًا إلى ابتزاز موظفة للقيام بما يرغب لقاء حوافز وتقديمات، وإلا منعها من المكافآت في حال رفضها.
- **تحرش مباشر**، ويظهر عندما يعمد أحدهم (زميل) بإغواء إحداهن أو التعرض لها بكلمة/ بحركة/ بتصرف/ بإيحاء جنسي بهدف الانجذاب.
- **تحرش فظ**: ويظهر من شباب الشوارع عبر الكلمات البذيئة والمعاكسة والملاحقة.
- **تحرش مهذب**: ويظهر في حالات المغازلة وإبداء الإعجاب وكلمات الإطراء وعبارات التملق والمواعدة.

ويُذكر في هذا السياق بأن **المعاكسة** تختلف عن **التحرش** من حيث المعنى الدلالي والفعلي للحدث، فالمعاكسة هي فضول الناس وخاصة الشباب على خصوصية البنات بالنظر أو الكلام أو الإيحاء أو الرسائل (إعطاء رقم عبر ورقة في مقهى/ أو التصفير/ أو من خلال الهاتف المحمول عبر ما يعرف بالبلوتوث. . حيث يستطيع أحدهم إرسال رسائل قصيرة أو صور أو أرقام هاتف إلى فتيات بقربه في الأماكن التي يتواجدون فيها). بينما التحرش هو مفهوم مختلف إذ قد يكون فعلًا مباشرًا باللمس أو الضرب أو الاعتداء أو المطاردة كما أفادت إحداهن كيف أنه يزداد خوفها ليس فقط من المعاكسة بالكلام عن بعد ـ وعندها الأمر هيّن ـ وإنما عندما يلاحقنها ويطاردنها، كيف تبدأ بالجري والخوف ينتابها.

إزاء هذه التعريفات المتعددة ارتأيتُ اعتماد تعبير التحرش كونه الأكثر تفهمًا ودلالة وانتشارًا من غيره، ذلك لأنني وجدت بأن التعابير الأخرى مثل:

معاكسة/ مغازلة/ تلطيش / تزنيخ/ مضايقات .. تختلف بين بلد وآخر باختلاف اللهجات العامية وحتى لا يساء الفهم وكي لا يقع المستجوبات في لبس ما أشرنا في عنوان البحث «الفتيات وأشكال التحرش»؟ **ما هي آراء الإناث فيه، كيف يقيّمنه؟ ماذا كان نوع المضايقة / المعاكسة؟ وكيف يتصرفن إزاءه؟ وهل من المفترض عقوبة لمن يتحرش وأي نوع من العقوبة يعتبر الرادع بنظرهن؟** هذه الأسئلة وغيرها كانت محور استطلاعنا لرأي عينة من فتيات المجتمع العربي (لبنان/ الكويت/ المغرب/ ..) خلال بداية العام 2007 بهدف معرفة أبعاد هذه الظاهرة من خلال معطياتها الميدانية ومقاربتها من أصحاب الشأن.

2) المقاربة الميدانية:

هل يقف أمر المعاكسة عند عمر معين؟ هل يطال أعمار دون أخرى؟ ما هي الأعمار الأكثر معاكسة؟ لوحظ من استطلاعاتنا أن الفتيات على اختلاف أعمارهن هن عرضة للمعاكسة، فقد تبين ولدى سؤال العينة: هل تعرضت يومًا أو تتعرضين لمضايقة (معاكسة) من الشباب؟ بأن جمعيهن قد أجبن بنعم بما نسبته (100%)، ولعل الجدول الوارد يشير إلى مدى انتشار هذه الظاهرة في أوساطنا الاجتماعية.

جدول رقم (1) توزع المستجوبات بحسب العمر.

الفئة العمرية	%
أقل من 18 سنة	5
19 ـ 22	40
23 ـ 26	25
26 ـ 30	12.5
أكثر من 30 سنة	17,5

يلاحظ من المعطيات أن الفئة الأكثر تعرضًا هي الفئة العمرية التي تقع بين 19و22 سنة، على اعتبار أنه في هذه المرحلة تبدأ الفتيات ـ وحسب

دراسات علم النفس ـ تولي اهتمامًا قويًا للاعتناء في صورة الجسد تأنقًا وملبسًا وزينة وهي مرحلة من التطور النفسي الجنسي حين تكون الذات موضع اهتمام قد يصل بالبعض إلى حد الهيام بها (narcissism). لهذا السبب نجد الشباب والفتيات يلجأون كثيرًا إلى المرآة لمراقبة جسدهم وتقاطيعه المختلفة والاهتمام بهندامهم وبشراء مستحضرات التجميل وأدوات الزينة والحلي، لأنهم لا يستطيعون أن يتقبلوا الواقع بصورة كاملة إلا بقدر ما يتعرفوا إلى أنفسهم وجسدهم لهذا يكون «حب الظهور» الذي يساورهم حول حقيقة جسدهم مسألة مهمة في هذا الطور من الحياة.

ومع نزعة الظهور المتأنق من الفتاة يُستفزّ الشباب الذين في مثل عمرهن عبر إطالة النظرات نحوهن وإرسال الإشارات الغامزة والتفوه بكلمات الغزل التي تشيد بجمالهن، خاصة وأن شباب هذه المرحلة هو أيضًا ممن تبرز لديه نزعة «التباهي» بقدراته البدنية فيأخذ بتعظيم ذاته عبر لفت الآخريات إليه بالكلام «**أي.. وا .. نحن هون.. يقبرني جمالك.. فينا نتعرّف**» (من مقتطفات الشباب في التلطيش والمعاكسة) وفق ما عبرت عنه صحافية لبنانية (33 سنة) في تقييمها لتصرفات الشباب عبر استطلاعنا هذا بالقول: «يتصرف الشباب على هذا النحو كي يبرهنوا للآخرين ـ وخاصة البنات ـ أنهم أصبحوا رجالًا جذابين.. إنه عمل الفائض الهرموني لديهم..» ولا تقف المسألة عند الشاب فحسب وإنما هناك نزوع من الإناث أيضًا في هذه الحالة كما يشير السيكولوجي (د. غسان يعقوب) في مفهومه للجسد الاجتماعي بالقول: «يلعب وجود الآخر دورًا مهمًا في تشكيل صورة الجسد، أي هناك نزوع باتجاه الآخر إنها الرغبة في رؤية جسده وفي لمسه والوصول إليه، فالفتاة التي تحاول من خلال فستانها القصير أو لباسها شبه المعرّى أن تبرز مفاتنها ترغب من ميلها الاستعراضي في أن ترضي فضولها الجنسي، آملة في أن تكتشف الآخر في جسده ومشاعره»[1].

وبالحديث عن الأعمار نسوق رأي فتاة تونسية في هذا الإطار حين

(1) د. غسان يعقوب، سيكولوجيا المراهقة، المرجع نفسه.

سئلت عندما تسمعين مغازلة أو معاكسة ما، ماذا تكون ردة فعلك فأجابت: لو كنت في مرحلة المراهقة لتأثرت، ولكن الآن (وهي في الثلاثين من العمر) لا يعني لي ذلك شيئًا، فالتأثر بالكلمات الجميلة يخف بريقه بين عمر وآخر، ففي مرحلة المراهقة قد تجعل المغازلة (المعاكسة/ الإطراء) الفتاة في غرور ما، ولكن في مرحلة عمرية متقدمة أعتقد أن الأمر يختلف».

جدول رقم (2) توزع المستجوبات بحسب المهنة

المهنة	%
طالبة	37
موظفة	22,5
عمل حر	15
ربة منزل	5
غيره	20

ولم يتوقف حد المعاكسة عند فئات العمر الشابة، بل تبين لنا توزعه أيضًا على مختلف الإناث سواء كن طالبات أو موظفات أو ربات منزل، وهذا يجعلنا نعتقد كيف أننا لا زلنا نعيش ثقافة الاشتهاء للجسد الأنثوي كائنًا من كان، دون أن نقف عند حواجز اجتماعية أو اعتبارات أخلاقية حيث وجدت أن الشباب لا يعنيهم إن كانت الأنثى متزوجة أم لا، طالبة أو ربة منزل، محجبة أو غير محجبة، (على اعتبار أن الحجاب قد يقصر طرف الذكور فتبين أنه لم يكن حائلًا عن المعاكسة حسبما أشارت عينة من الفتيات المحجبات في الاستطلاع) أو إذا كانت في صورة جامدة أو حاضرة فعليًا أمامهم، فأكثرهم يمعن النظر مع رغبات شبقية لحاجات جنسية غير ملباة.

جدول رقم (3) توزع المستجوبات حسب أماكن التحرش

المكان	%
مكان عام (طريق/ مواقف الانتظار)	32,5
مكان العمل	7,5
الوسط الجامعي	40
مقاهي / مطاعم	2,5
أثناء التجمع في احتفالات	10
وسائل النقل	25
أماكن أخرى	7,5

ويتبين لنا هنا تعدد الأماكن التي تحدث فيها المعاكسات بدءًا من شارع الحي الصغير أو ساحة البلدة أو المنتزه أو السوق كأمكنة عامة، إلى المقاهي والمطاعم والاستراحات والمسابح التي يرتادها الشباب والإناث على حد سواء، إلى وسائل النقل(خاصة الباصات) والتجمعات الشعبية للتظاهر أو للاحتفالات التي تبدو أكثر الأماكن تحرشًا نظرًا لما يتيحه الاحتشاد من اندفاع وتقارب وتلامس يستغلها الشاب «الصائع» فرصة لإظهار مواهبه الممجة، وللاختفاء بين الجموع فيما لو ترتب على تصرفه تحديات لا يقوى عليها، وصولًا إلى الأماكن المغلقة كمكان العمل الذي لا يتورع فيه أصحابه أو العاملين فيه عن التحرش أو المعاكسات.. (ويبدو ذلك واضحًا من بعض الحالات التي يبتز فيها رب العمل موظفاته في أعمال جنسية مباشرة أو استغلالهن وظيفيًا عبر جمالهن الأنثوي لمآرب خاصة).

إزاء هذا الواقع كثرت الاحتجاجات وتنامت الشكاوي من نساء عديدات عن مضايقة الرجال وأرباب عملهن ليتصاعد الاحتجاج عبر حركات نقابية تدعو إلى إنصافهن وحمايتهن من تسلط الرجل الإداري في مكان العمل، وهذا ما دفع بعض الدول ومحاكمها لأن تولي اهتمامًا في القضايا التي تنتمي إلى التحرش غير المباشر لما له من أبعاد اجتماعية ومهنية خطيرة لاسيما وأن ظاهرة التحرش إلى ازدياد بين عام وآخر حسبما ذكرت مؤسسة الأبحاث

الأمريكية للدراسات الاجتماعية، إذ تبين لها أن 32% من النساء قد تعرضن لتحرش خلال عملهن وخارجه (تنفيذ الابتزاز).

جدول رقم (4) توزع المستجوبات حسب طبيعة التحرش

طبيعة التحرش	%
مباشر	5
غير مباشر	72,5
الاثنين معًا	12,5
لا جواب	2,5

وفقًا للتصنيفات المشار إليها آنفًا عن ماهية التحرش أو المعاكسة المقصودة توجهنا إلى المستجوبات بسؤال يتضمن: نوع التحرش الذي يتعرضن له في الغالب أو إذا قد تعرضن إلى تحرش غريب، فأفادت أكثرية المستجوبات (5، 72) إلى أنهن يتعرضن لتحرش من النوع الذي عرفّناه بأنه: تحرش غير مباشر عبر الكلمات التي تمتدح جمالهن أو شيء من أعضاء جسدهن أو لسِمة يتمزيّن بها أو تشبيههن بشيء. حيث أشارت أغلبية المستجوبات أن ما يقوله الشباب لهن يتنوع ما بين طريف وخفيف وبذيء فاضح وعنيف، وقد تم تصنيف حصيلة ما قلنه من «معاكسات» في أربعة أطر هي:

1. **عن الشكل**: يقبرني هالطول/ تسلملي هالقامة/ بتعطيني عيونك/ شو هالجسد يا أسد/ من وين مشتريي هالعيون/ جمالك قبّع البلاط/ شو هالجسم اللي بيعقدّ!! القالب غالب.

2. **عن الجوهر**: غمرينا بلطفك/ تقبري عظامي، كيف كلك هضامي/ شو هالغندرة يا كندرة/ يا حلو مش للألك . .لألو / حنّي علينا شوي / قتلتني . .النعومة/ تدلل يل مدلل / شو هالغنجة / شو عنيفة / .

3. **عن أوصاف**: يسلملي هالصوت/ زمان القمر ما بان/ شو هالأحمر/ حبك طعوجني / شو هالحلا بيعمل بلا/ عطرك جنني/ يسلملي الأزرق شو بيلبق !.

4. طرائف: جيبولي الأطفائية/ بتروحي خطيفي / أوعا يفقع/ شو غالي القماش بهالأيام (للتنورة القصيرة)/ فرديها بقا/ ليش التعصيب (للعابسة)/ عبرّينا شوي (للامبالية) / أوعا تروحي بتاخذي روحي / بحبك يا وحش/ يا أرض احفظي ما عليكي/ يا ريتني مدعسة / كربوجي والله / عاشو شايفي حالك (للمغرورة).

مما ورد نتبين أن أغلب الكلمات تطال ميزة معينة لدى الأنثى، ويحاول الشاب المعاكس قدر الإمكان أن يقول شيئًا ما (وغالبًا ما يكون ظريفًا) كي يجعل الآخر يبتسم أو يضحك فيسرّ عندها لأن كلمته تركت صدى، ويستوقفنا هنا رأي لبنى (22 سنة/ الكويت) التي تشير بأنه «في السابق كانت مضايقات الشباب سيئة جدًا حسبما يقال لي، أي أنها كانت محرجة وفاضحة جدًا، أما اليوم فهي أقل إحراجًا بل إنني أجدها أحيانًا ترتدي طابع الرمزية أو تأتي مضحكة بين الحين والآخر».

ومثلما هناك نسبة ضئيلة امتنعن أو تحفظن عن التصريح بطبيعة التحرش الذي تعرضن له، حيث منعهن حياؤهن ربما عن ذكر الإجابة ولكنهن تعرضن حسبما أشرن، نجد في المقابل جرأة القائلات بأنهن تعرضن لكلا الأمرين في نسبة لابأس بها (12,5%) وهي نسبة بتقديرنا لا يستهان بها. بين هذين الرأيين بأنه يجب أن يصرحن أو يتكتمن، تعلق طالبة إعلام /لبنانية (20 سنة) على ذلك بالقول: «في رأيي وعندما تتعرض فتاة لتحرش مباشر(اعتداء جسدي أو اغتصاب أو ما شابه) لا يجب عليها التكتم عن الموضوع بل رفع دعوى إلى السلطات المختصة لمعاقبة الفاعل، بدل من انزوائها في البيت بمرارة على ما حدث لها، يجب أن ترد اعتبارها وكي تحمي فتيات أخريات من التعرض إلى نفس التجربة..».

وفي هذا السياق وردنا رأي لفتاة من الكويت (22سنة) كيف أنها لاحظت تشابهًا في أسلوب المعاكسة بين الشباب في مختلف البلدان العربية التي زارتها، إذ غالبًا ـ وكما تقول ـ: «يبدأ أسلوب المعاكسة عن طريق مدح الشكل وإذا لم تتجاوب معهم يقومون بالسب والشتم وحتى بالبصق عليها، يا له من تصرف مخزٍ من شبابنا» تعلّق أميرة.

جدول رقم (5) توزع المستجوبات بحسب ردة فعلهن على التحرش

التصرف	%
تبتسم	12,5
تنزعج	25
تشكر	-
تحقر	15
تضرب	2,5
لا تهتم	27,5
غير ذلك	5

وبما أنهن يتعرضن لشتى ضروب المعاكسة والتحرش أردنا أن نرصد رد فعلهن على تصرفات الشباب، فقدمنا على ذلك الخيارات الممكنة في الرد من قبلهن فأشارت أكثريتهن بأنهن لا يهتمين (27,5%) وأخريات ينزعجن (25%) ومنهن من تحقر (15%)، أي نلاحظ ثمة تفاوت في رد فعل الفتيات ما بين:

- اللامبالاة وهو برأيهن أمضى سلاح على الذين يعاكسونهنّ، خصوصًا في الأماكن العامة حيث لا يعيرهنّ اهتمامًا، ويمشين وكأنهنّ لسن المعنيين وحينئذ لا يدخلن في أخذ ورد.
- الانزعاج باعتباره تطفل وقلة ذوق وعدم احترام من شباب فظ.
- التحقير فيما لو تمادى المعاكسون في ألفاظهم وتحركاتهم فبعضهن أشارت بأنهن قد يعمدن إلى الضرب ويدخلن «في عراك إذا اقتضى الأمر».
- أو يبتسمن أحيانًا من تصرفات الشباب، ولدى الاستفسار عن ذلك أشرن بأن الأمر مرتبط بنوع «المعاكسة» فمن الشباب من يكون «ظريفًا بكلماته» «خفيفًا في تصرفاته» يحاول لفت نظر الفتاة التي تعجبه بطرق خجولة فيصدر عنه تصرف يبدو بالنسبة لنا «مهضومًا» نبتسم لحظتها ونتابع سيرنا.
- أو ننسحب من المكان الذي نتواجد وإيّاه أو نكلف شابًا لإفهامه بأننا لسنا

في وارد التعرف أو الأخذ والرد، كما أشارت نسبة القائلات بغير ذلك.

ولكن هل تستلزم معاكسات الشباب عقوبة ما؟.

جدول رقم (6) توزع المستجوبات بحسب نوع العقوبة المقترح

العقوبة	%
غرامة مالية	17,5
سجن	22,5
تأهيل (توعية وإرشاد)	15
توبيخ وتعنيف	7,5
إبلاغ الشرطة	10
كتابة تعهد	2,5
لا أعرف	12,5

* رغم أن هذا التصرف يعتبر من وجهة نظر الشاب الملتزم دينيًا تصرفًا غير لائق ويحاسب عليه صاحبه ومحظورًا بل محرمًا دينيًا ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [سورة النور، الآية: 30]/ «يا عليُّ لا تتبع النَّظرَةَ النَّظرَةَ فإنَّ لك الأولى، وليست لك الآخرة».(حديث نبوي)، ورغم أن القانون لا يعتبر مثل هذا الفعل فعلًا جرميًا إلا أنه إذا وصل إلى حد الاعتداء والتعرض الجسدي المباشر ورغم أن مثل هذه التصرفات تدرج ـ اجتماعيًا ـ في باب الأعمال غير المضبوطة أخلاقيًا...

* ولأن هذه المسألة تبقى نسبية على نحو ما أشارت إحدى المستجوبات بأن مثل هذه الظاهرة موجودة في أغلب المجتمعات تلاحظها أثناء سفرك بين بلد عربي وآخر غربي، وأخريات قلّلن من أهميتها لأنها تنمُّ عن ضعف شخصية أو جهل وضياع وقلة ثقة بالنفس لدى الشباب وهي تصرفات مراهقة وتسلية سخيفة عابرة لا تقدم ولا تؤخر إنما أفعال لا أهمية لها كونها تنم عن مستويات طيش يمر بها الشباب في أي مكان.

* ولأن اللوم ليس دائمًا يقع على الشباب في تصرفاته الهوجاء حيث للفتيات نصيب منه أيضًا على نحو ما أشارت أكثر من مستجوبة بآراء مفادها: نحن لا نلوم الشاب أكثر مما نلوم البنات فهي التي تفسح

المجال أحيانًا سواء عن طريقة لبسها أو نظراتها أو مشيتها أو حركاتها، مما يدفع الشاب لمغازلتها وعندما يقوم بذلك تصرخ وتقول: «يا بلا تهذيب» (رأي لموظفة / 36 سنة/ من لبنان).

تبقى النظرة إلى تبعات المعاكسة ـ ليس من باب أخلاقية هذا الفعل أو عدمه ـ بل من باب وضع وازع قيمي أو ضابط اجتماعي يحول دون تمادي أو تفشي هذه الأفعال حتى لا تصبح خطرًا على المجتمع وخصوصيات الناس.. مما يعني ضرورة تقرير عقوبة معينة لتستخدم عند لزوم الأمر، فهل من المفترض معاقبة الشباب على «تطفلهم»؟ 35% من مستجوباتنا أشرنا بأنه ليس بالضرورة أن يكون هناك عقوبة قاسية، فالفتاة تستطيع أن توقف حد الشباب عن هذه التصرفات بعدم إعارته الاهتمام، أو يمكن توعيتهم والنظر إلى هذا التصرف على أنه بمثابة قلة وعي لديهم أو نقص تربية أو نتيجة مرض نفسي يعتريهم. فلِما نعاقب إنسان بحاجة إلى مساعدة في التربية والتأهيل، ولكن بنظر المستجوبات الأخريات وهن الأغلب (55%) يجب معاقبتهن بحسب الفعل المرتكب أو التصرف الذي أذين فيه الفتيات، وبرأيهن يمكن أن تكون العقوبة إما سجن لمدة شهر وأكثر إذا لزم أو دفع غرامة مالية أو إبلاغ الشرطة وكتابة تعهد.

3) الرأي الآخر:

وفي الوقت الذي اقترحت فيه أغلبية المستجوبات حلولًا لهذه الظاهرة من:

- ✓ إدخال التثقيف الجنسي في البرامج المدرسية.
- ✓ العمل على تغيير نظرة المجتمع نحو المرأة.
- ✓ البوح بقضايا التحرش العنيف وعدم التكتم عليه.
- ✓ إتاحة الاختلاط المعقول ليتم احترام الجنوسة على مبدأ المساواة.
- ✓ إقامة حلقات توعية وإرشاد وتهذيب .. خاصة للشباب المتعطل.

نلاحظ أن المعاكسات أو أفعال التحرش بمفهومها المبسط تنم عن واقع نفسي واجتماعي، تشير إلى العديد من المشكلات السوسيولوجية المغيبة خلف ستار من الهموم الاجتماعية والذهنية والنفسية، فهناك البطالة والتهميش والفقر

والتسكع والهوة القائمة بين طبقات المجتمع وتأخر سن الزواج والكبت الجنسي والسيطرة الذكورية وهيمنة الصورة النمطية التي يحملها كل جنس عن الجنس الآخر وشيوع رهبة التقاليد المحافظة وغياب أي حيز عام للاختلاط السليم، وصولًا إلى «حالة الانفصام الجماعية التي يحياها شباب اليوم بين الواقع الافتراضي الذي تبثه قنوات التسلية والفيديو كليب الفضائية، والواقع المعيوش بما فيه من قحط مادي وثقافي وأخلاقي وجسدي» ولكن هل هذه الأسباب هي فعلًا ما يجعل الشباب يعاكسون، يلطشون (حسب التعبير العامي اللبناني) ويتحرشون؟ ما الذي يدفعهم إلى فعل ذلك؟ ما هو رأي الشباب الآخرين إن كانوا لا يلطشون؟ وبالتالي ماذا يكون رد فعلهم عندما يتعرضون لمعاكسة من فتيات؟ أسئلة نقاش حملتها إلى عينة منهم على اختلاف الأعمار والمستويات فكانت الإجابات التالية:

- ✓ نادر (25 سنة/ عامل في مكتبة) «عندما ألطّش (أعاكس) انبسط، أشعر بأنني قلت كلمة حلوة، عبرت عن شيء داخلي، ولكن بصراحة بعد أن ألطّش وخاصة إذا كانت كلمة ثقيلة أشعر بنوع من الذنب، لأنني أعتبر ذلك بمثابة اعتداء على العرض .لأن مثلما أنت تلطش بنات الناس يمكن حدا غيرك عم يلطش أختك».
- ✓ ياسر (24 سنة/ مهندس) «أنا لا ألطّش بالكلام إنما أنظر فقط، لا أجد نفسي مثل أولئك الشباب الذين يطلقون على البنات صفات ونعوت حين تمر، فإذا لفتت نظري بنت أتطلع وأتأمل جمالها».
- ✓ ربيع (20 سنة / طالب) أنا لا أعاكس البنات ولم يحدث أن حصل وربما لا أفكر بذلك أن أقوم به لاحقًا.. (لماذا..هل تعتبر ذلك سخافة؟) لا.. لا أعتبرها سخافة، طالما كثير من الشباب يقوم بها... فإذن هو ليس بشيء سخيف .. إنما بالنسبة لي لم يحدث أن قلت لإحداهن شيئًا من هذا القبيل».
- ✓ هشام (40 سنة/ موظف) «برأيي هناك تلطيش مهذب وهناك تلطيش غير مهذب، هذا يعود إلى من يلطش (هو) ومن تلطش(هي)، فمن الشباب

من يعاكس البنات «عالرايح والجاي» بكلام، بغمز، بلمز، بتحرش، بفظاظة، هنا تنزعج البنت بطبيعة الحال، بينما في أوضاع أخرى قد تكون رد فعلها إما ابتسامة أو لا ترد أو قد تتوقف وتجري حديث. إذًا المسألة مرهونة بمستوى الشباب والبنات على حد سواء.

ومما استنتجته ـ بالملاحظة والمناقشة ـ أن مستوى المعاكسة الكلامي يختلف مستواه بمستوى الارتقاء الاجتماعي، فكلما تدرج المرء في سلم وجوده الفكري والاجتماعي كلما جاءت المعاكسة أكثر تلطفًا، ذلك أن الناس ليسوا فقط نتاج القيم التي يحملون، وإنما نتاج الأماكن التي يأتون منها ويتواجدون فيها، فقد يتحرز شاب ذو مكانة اجتماعية مرموقة أو رجل أعمال مبتدئ من التحرش بفتاة في مكان عام، وإن حدث فإنما يحدث بطريقة لبقة وغير مباشرة، بشكل يختلف عن أسلوب «شُلة الشوارع» الذين يتكعون عند زوايا الطرقات أو على الأرصفة فيتناولون الناس وخاصة الفتيات ذهابًا وإيابًا.

وفيما لو عمدت إحداهن إلى معاكسة أحد الشباب فكيف ينظرون إلى المسألة؟ برأي عينة منهم اقتطفنا الردود التالية:

1. **«أرد بأسلوب الكلام نفسه إذا كانت مهضومة وإذا ما أعجبتني أسمح لها بالتمادي» (مارسيل/ 25سنة).**

2. **«أرد عليها في حالة واحدة وهي إذا كانت جميلة، أما إذا كانت لا تتمتع بالجاذبية فلا أهتم لذلك وأتصرف تبعًا للموقف، ومن تكون «المُعاكِسة» (زياد/ 30 سنة).**

3. **«أرد حسب طبيعة التحرش، فإذا تفوهت بكلام لطيف أرد بالمثل، أما إذا كان العكس أرد أيضًا، ولكن أن تصل الفتاة إلى حد مغازلة الشاب فهي برأيي إما سيئة النية، أو أن من أمامها يعجبها!!» (طلال 33 سنة).**

4. **«عندما تقول لك فتاة معينة» «يا قمر» مثلًا، فهذا يعني أنك لفتَّ نظرها ومعجبة بك (وسبق لهذا الموقف أن حدث معي) ليكون بعدها تعارف ولقاءات. فالتلطيش غالبًا ما يكون بداية تعارف فصداقة. (كمال 27 سنة).**

5. «عندما تعترضني فتاة في الطريق وتبادر إلى سلام وحديث، ـ وهذا حصل معي أكثر من مرة ـ أعرض عنها وأتهرب منها، إذ يتبادر إلى ذهني اعتقاد بأنه كما تفعل معي (تتحرش بي) ربما فعلته مع غيري ومع شباب كثيرون قبلي، ما يدريك!!» (يوسف/ 23 سنة).

يلاحظ من إجابات بعض الشباب أن الرد على المعاكسة مشروط بجمال الفتاة، وكأن الجمال أصبح عامل جذب وجسر عبور للتعارف، ويفوتهم أن الجميلات نادرًا ما يلطشن، فقد تبين بالتجربة أن الفتاة الجميلة تصون جمالها بالخفر والحياء والكبرياء والإباء وحتى بالغرور. (أي تكون مشغولة بنرجسيتها) لهذا فالوسيمون والجميلات يعتبرون معاكسات الآخرين لهم أو لهن نوع من «ثقل الدم» الذي يبدو في مظاهره تصرفات مزعجة وربما وقحة إذا كانت فظة الأسلوب.

ومع تنامي معاكسة الفتيات للشباب وانتقالها من داخل غرف المحادثة عبر الإنترنت إلى الحياة اليومية في الأماكن العامة، تبين من المتابعة الإعلامية للظاهرة[1] أن السبب الكامن وراءها يعود إلى كثرة أوقات الفراغ التي تعيشه الفتيات في ظل عدم وجود رقابة أسرية وسهولة الاختلاط، تأثرًا بالمسلسلات التركية، وانصراف الشباب إلى فتيات أجنبيات فيحاولن لفت النظر كبديلات أو الرغبة بالانتقام نتيجة علاقة عاطفية فاشلة (هذا بالنسبة لصغيرات العمر)، أما بالنسبة للفتيات المتقدمات فالدافع إلى ذلك غالبًا ما يكون بهدف إيجاد «عريسًا» (ولذلك طرق استدعاء عديدة).

إزاء تنامي هذه الظاهرة ظهرت حملة على موقع الفايس بوك الإلكتروني يتزعمها مجموعة من الشباب للاعتراض على معاكسة الشباب من قبل البنات، وينتقدن مظهرهن عندما يقمن بمعاكستهن، ويضم ذلك الموقع أكثر من 1406 أعضاء من الشباب الذين يشاركون في كثير من المناقشات المطروحة، منها أن يحكي الشباب المواقف التي تعرضوا فيها للمعاكسة مثل: الابتسامات،

(1) فتيات اليوم يلاحقن الشباب لإيقاعهن (استطلاع رأي) مجلة الأسرة. العدد 847، كانون الثاني 2010.

النظرات، تعليقات الكلام، الحركات باليدين، إرسال أرقام الهواتف، الرسائل القصيرة، البلوتوث، المكياج الصارخ، الاستعراض بالثياب الصرعة، التباهي بالأشياء القيمة (الساعة، السيارة، الهاتف، وغيرها من الإكسسوارات).

4) في التحليل والاستنتاج

يرجع بعض باحثو علم النفس الاجتماعي المعاكسة / التحرش إلى نوع من الجمود النفسي الذي ينشأ عن شذوذ في التفكير أو انحراف وكبت في العاطفة، ومثل هذا الجمود له علاقة شديدة بإخماد الغريزة الجنسية التي تحاول أن تتفلت عبر فلتات لسان ونظرات عيون وإشارات يد. وهذا ما يعرضه الباحث السوسيولوجي (أنطوني غدنز) عن العالم النفسي (فرويد) بتحليله لزلات اللسان، التي يرى فيها تعبيرًا «عن مواقف ومشاعر خفية تكمن في أعماق النفس إزاء شخص أو أمر ما، إنها تنبعث من أعماق اللاوعي بعد مرحلة من الكبت الذي يمارسه العقل الواعي عليها، وتتضمن مثل هذه المشاعر في بعض الأحيان تداعيات ذات طابع جنسي كما أنها تحمل محمل الدعابة والفكاهة في كثير من الأحيان وقد تبدو عفوية وتلقائية في أحيان أخرى»[1].

ورغم أننا نلجأ إلى التواصل من خلال المؤشرات غير الشفوية في سلوكنا لإعطاء معنى لتصرفاتنا أو لتفسير المعاني التي ينطوي عليها سلوك الآخرين تجاهنا، فإن الجانب الأكبر من تفاعلنا إنما يجري من التبادل العرضي للحديث في سياق غير رسمي مع الآخرين، وقد استقر الرأي لدى علماء الاجتماع منذ زمن بعيد على أن اللغة تمثل محورًا جوهريًا للحياة الاجتماعية، بيد أن الأشكال والأساليب التي تستخدم قد أصبحت في الآونة الأخيرة محط اهتمام عدد قليل من الدارسين عبر ما يصطلح على تسميته بـ «الأثنوميتودولوجيا» وهي اتجاه من الدراسة الاجتماعية تحاول أن توضح كيف يفهم الناس ما يقوله الآخرون ويفعلونه أثناء التفاعل الاجتماعي اليومي، لأن كثيرًا ما نستخدم أنماط التفاهم بصورة عادية من دون وعي.. وهكذا في

(1) أنتوني غدنز، علم الاجتماع، المرجع نفسه.

كل لقاء بيننا وبين الآخرين يتمثل جانب من معنى التفاعل بيننا في ما نتفوه به من كلمات بينما يكمن الجانب الآخر في الأسلوب الذي يتشكل فيه القول في السياق الاجتماعي.

obeikandl.com

المراجع

1 ـ علم الاجتماع، أنتوني غدنز، ترجمة د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2006.

2 ـ المجتمع العربي المعاصر، د. حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1981.

3 ـ علم النفس الاجتماعي، محمود سيد أبو النيل، دار النهضة العربية، بيروت 1989.

4 ـ مقدمة لدراسة المجتمع العربي، د. هشام شرابي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1977.

5 ـ نظريات معاصرة في علم الاجتماع، عمر معن خليل، دار الشروق، عمان 1997.

6 ـ علم الاجتماع القروي، محمد عاطف غيث، دار النهضة العربية، بيروت، د ـ ت.

7 ـ سيكولوجيا الجماهير، غوستاف لوبون، ترجمة هشام صالح، دار الساقي، بيروت، 1991.

8 ـ معجم العلوم الاجتماعية، فردريك معتوق، أكاديميا، بيروت، 1993.

9 ـ المظاهر الثقافية في الديانتين المسيحية والإسلامية، مكتب الأونيسكو الإقليمي، بيروت، 2008.

10 ـ تغير القيم في العائلة العربية، (ورقة عمل) صادرة عن اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الأسكوا) كانون الثاني، 1996.

11 - RICHARD SCHAEFER, SOCIOLOGY (11 th. edition), Mcgraw hill companies inc, new york, 2008.

12 - JUDITH BELL, doing your research project, open university press, Milton Keynes, England, 1989.

obeikandl.com